بسم الله الرحمن الرحيم

الخزانة

مجلة علمية نصف سنوية تعنى بالتراث المخطوط والوثائق

تصدر عن

مركز إحياء التراث التابع
لدار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة

العدد التاسع، السنة الخامسة
شعبان ١٤٤٢هـ / آذار ٢٠٢١م

العتبة العباسيّة المقدّسة. المكتبة ودار المخطوطات. مركز إحياء التراث.

الخزانة : مجلّة علميّة نصف سنويّة تعنى بالتراث المخطوط والوثائق / تصدر عن مركز إحياء التراث التابع لدار مخطوطات العتبة العباسيّة المقدّسة.ــ كربلاء، العراق : العتبة العباسيّة المقدّسة، المكتبة ودار المخطوطات، مركز إحياء التراث، 1438 هـ . = 2017 -

مجلد : إيضاحيات ؛ 24 سم

نصف سنويّة.- العدد التاسع، السنة الخامسة (آذار 2021)-

ردمد : 4586-2521

تتضمّن ملاحق.

تتضمّن إرجاعات ببليوجرافيّة.

النصّ باللغة العربيّة ومستخلصات باللغة العربيّة والإنجليزيّة.

1. المخطوطات العربيّة--دوريات. ألف. العنوان.

LCC: Z115.1 .A8364 2021 NO. 9

DDC : 011.31

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسيّة المقدّسة

الترقيم الدوليّ

ردمد: ٤٥٨٦-٢٥٢١

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية ٢٢٤٥ لسنة ٢٠١٧م

كربلاء المقدّسة – جمهورية العراق

يمكن الإتصال أو التواصل مع المجلة من خلال:

٠٠٩٦٤ ٧٦٠٢٢٠٧٠١٣ / ٠٠٩٦٤ ٧٨١٣٠٠٤٣٦٣

الموقع الإلكتروني: Kh.hrc.iq

الإميل: Kh@hrc.iq

صندوق بريد: كربلاء المقدّسة (٢٣٣)

الباب الأول

دراسات تراثية

ورقة حساب توثّق
تجارة الفواكه والبقوليات في سوقٍ دمشقيّ
في القرن السابع الهجريّ

A balance sheet documenting the trade of fruits and vegetables in a Damascus market in the seventh century AH

الأستاذ الدكتور كونراد هيرشلر / الدكتور سعيد الجوماني
معهد الدراسات الإسلامية/ جامعة برلين الحرَّة
المانيا

Univ.-Prof. Dr. Konrad Hirschler / Dr.Saeed Al-Jawmani
in the Institute of Islamic Studies at
Freie Universität – Berlin
Germany

الملخّص

الوثيقة المدروسة في هذا البحث فريدةٌ من نوعها من عدة نواحٍ، أولاً: من ناحية الموضوع لإنها فتحت لنا نافذةً جديدة على الجانب الاقتصاديّ في دمشق خلال القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ، وصوَّرت لنا مجريات الحياة العمليّة اليوميَّة داخل إحدى الأسواق الدمشقيَّة، إضافةً إلى إبرازها شطراً من لغة التجَّار، كما أنها أول وثيقة تُنشر من هذا النّوع قبل الحقبة العثمانيّة، ثانياً: من ناحية الممارسات الإرشيفية والكتابية، فقد منحتنا هذه الوثيقة فرصة استثنائيّة في التعرف على كيفيّة إنتاج الأعمال الورقيّة ودورة حياتها، والتفكير في الممارسات الكتابيّة والإرشيفيّة في سياقات غير إداريّة وغير رسميّة، ثالثاً: من ناحية المصدر لإنها وثيقة من قبة الخزنة في الجامع الأمويّ بدمشق.

الكلمات المفتاحية: التاريخ الاقتصادي، الممارسات الكتابيّة والإرشيفيّة، قبة الخزنة، دمشق.

Abstract

This article discusses a document that is unique from three perspectives: Firstly, it opens a new window into the economic history of Damascus in the 7th/13th century especially with regard to daily trading practices on the city's markets and the traders' language. This is of particular importance as it is the first such pre-Ottoman document ever published. Secondly, this document gives a unique insight into the production of paperwork beyond the administrative and official realms. The article thus puts a particular emphasis on the writerly and archival practices that are inscribed into it. Finally, this document is of particular significance as it comes from the Qubbat al-māl (Qubbat al-khazna) in the courtyard of the Umayyad Mosque – a repository that has been poorly studied so far.

Keywords: economic history, documentary and archival practices, Qubbat al-māl / Qubbat al-khazna, Damascus

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يعرض البحث سجلاً يومياً، أو دفتر حساباتٍ خاصّ بتسليم بعض المواد الغذائيّة التي كانت رائجة في سوقٍ دمشقيّ في منتصف القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ وبيان أسعارها، وهذه الوثيقة فريدة من نوعها؛ لإنّها تسلّط الضوء على الجانب الاقتصاديّ في دمشق في هذه المدّة، وإبرازها جانباً من مستوى لغة التجّار فيها، وهذه الورقة من قبة الخزنة في الجامع الأمويّ، (Şam Evrakları 13327)[1] (مجموعة شام أوراقلري ١٣٣٢٧) ومثل هذه الوثيقة نادراً ما تقع بين أيدينا. ففي حين تميل المصادر السرديّة؛ خاصة كتب التاريخ وكتب التراجم والسّير، وكذلك المصادر المعياريّة؛ خاصّة كتب الحسبة في الحقبة المذكورة، إلى التركيز على الحالات الاستثنائيّة مثل: الاحتيال و/ أو المنتجات الفاخرة الراقية، أو التجارة الخارجيّة؛ فإنّ ما نراه هنا -في المقابل- هو تسليم منتجاتٍ عادية، يومية الاستعمال؛ مثل: الزبيب، والبقوليات، وفي سياقٍ محليّ، وعلى حدّ علمنا تُعدّ هذه الوثيقة الأولى من نوعها فيما قبل الحقبة العثمانيّة التي يتمّ نشرها. فالوثائق المنشورة التي تُشير إلى الأسواق هي في معظمها رسائل تتحدث عن السوق، ولكنّها لا تُعبر عن معاملات السوق نفسه[2]، أمّا المستندات الأخرى التي تُشير إلى عالَم النشاط الاقتصادي العادي فهي في معظمها وثائق

(1) Aljoumani, Said/ Hirschler, Konrad. 'Trading Fruits and Legumes on a Medieval Damascene Market: The Documentary and Archival Life Cycle of an Account Book from the Qubbat al-khazna (Şam Evrakları 13327)', in: Hatice Aynur/Didar Bayır/Fatma Şen/ Tuncay Zorlu (eds), Festschrift in Honour of Ekmeleddin İhsanoğlu for his 75th Birthday, Istanbul 2021, 51-88.

(2) Such as Guo, L., Commerce, Culture, and Community in a Red Sea Port in the Thirteenth Century. The Arabic Documents from Quseir, Leiden 2004, no. 31.

شرعيَّة؛ على سبيل المثال: هناك وثيقة عن وقف معصرة زيت[١]، وأخرى فيها إقرار بالدَّين عن محصول ذُرَة[٢]، في حين أنَّ الوثائق الوحيدة الأخرى المماثلة التي نعرفها هي الحسابات المصريّة (من تاجر ثياب) في مجموعة فيينا التي لم تُنشر بعد[٣].

وبصرف النظر عن أهمّيتها بالنسبة إلى التاريخ الاقتصاديّ؛ فإنَّ هذه الوثيقة تقدّم نظرةً ثاقبة لإنتاج الأعمال الورقيّة، ودورة حياتها في سياقٍ غير إداريّ وغير رسميّ. فلدينا الآن مجموعة كبيرة من الوثائق المنشورة المتعلّقة بالضرائب، ومستندات الأحوال الشخصيّة، والتجاريّة، والشرعيَّة من حقبة ما قبل العهد العثمانيّ؛ مثل: سندات البيع، وعقود الزواج، ووثائق الوقف. وقد سمحت هذه المجاميع لدارسي هذا الحقل المعرفيّ بالتنقيب بشكلٍ أعمق عن أسئلةٍ عمّن قام بإنتاج هذا النوع من الأعمال الورقيّة أو ذاك؟، ومن أجل أيِّة غاية؟ ومن الذي حفظ هذه المستندات؟ هناك مثالان حديثان على مثل هذا العمل؛ هما: تحليل كريستيان مولر لسياقات الإنتاج الخاصّة بوثائق الحرم الشريف من القدس، ومناقشة ديزي ليفينغستون للممارسات الأرشيفيّة المتعلّقة بأعمال الوقف في القاهرة[٤]. ومع ذلك، فإنّ هذه الوثيقة تسمح لنا بالتفكير في الممارسات الكتابيّة، والأرشيفيّة، وكذلك دورة الحياة الوثائقية في أوضاعٍ أقلّ رسميّة.

الممارسات الاقتصاديّة

الوثيقة عبارة عن ورقة ورقيّة واحدة بعنوان: (ثَبَت حساب أبو زهر فامي)،

(1) Khan, G., Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Genizah Collections, Cambridge 1993, 185-7.

(2) Arabic Papyrology Database, P.Cair.Arab. 105 (https: //www.apd.gwi.uni-muenchen.de/apd/project.jsp; accessed 23 April 2019).

(3) Österreichische Nationalbibliothek A.Ch.10233. نتقدّم بالشكر إلى الدكتورة ديزي ليفينغستون لتعريفنا بهذه المجموعة

(4) Müller, Ch., Der Kadi und seine Zeugen: Studie der mamlukischen *Ḥ*aram-Dokumente aus Jerusalem, Wiesbaden 2013 and Livingston, D., Managing Paperwork in Mamlūk Egypt (c. 1250-1517). A Documentary Approach to Archival Practices, PhD thesis (SOAS, University of London) 2019.

تـمَّ طَيُّها رأسـيًّا لإنتـاج أربـع صفحـات (انظـر الشـكل ١، وكذلـك اللوحتيـن ١-٢). نجد فـي هـذه الصفحـات قوائـم تحتـوي على شـحنات المنتجـات الزراعيّـة بالـوزن، وثمنها بالدينـار الذهبـيّ، وقـد تـمّ تأريخ عمليتي التّسـليم والتّسـديد باليـوم والشـهر، لكنّهما مسـجّلتان فـي قائمتيـن متمايزتين، وعمليتا التّسـليم والتّسـديد قد لا تتوافقـان؛ فغالبًا مـا تحدثـان فـي أيامٍ مختلفة، ثـمّ تتمّ تسـوية الرصيد في الحسـابين الختاميـن اللَّذَين نجدهمـا في هـذه الوثيقة.

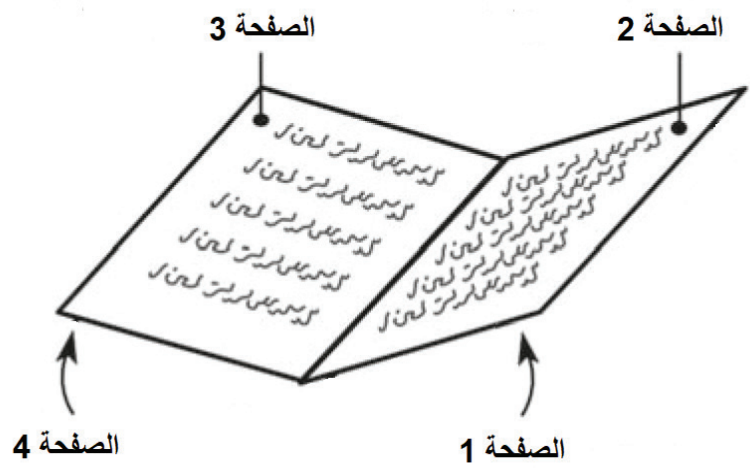

الشكل رقم1. رسم دفتر من ورقة واحدة وأربع صفحات. نقلاً عن
Gacek, A. (2009), Arabic Manuscripts. A Vademecum for Readers, Leiden/Boston, p. 107). © Brill/Adam Gacek

وعلـى الرّغـم مـن أنَّ المنتجـات التي تمَّ تسـليمها في يومٍ معيِّن لم تكـن واضحةً في هـذه الوثيقـة، فـإنَّ السـجلّ يذكـر مرتيـن الزّبيـبَ (الصفحـة ١، السـطر: ٧، والصفحة١، السـطران: ٢١ - ٢٢)، ويذكر مرة واحدة الباقلاء[١] (الصفحة٤، السـطر: ١٠). ومن الجدير بالإشـارة تطابـق نسـبة أبـي الزهـر (الفامـي) مـع هـذه الإشـارات إلـى الفواكـه المجفّفة

(١) الباقلاء: الفول.

والبقوليات، وهذا تماماً ما يشير إليه اسم الفَامِي وفقًا لقاموس ابن الأثير في القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ؛ فقد عرَّفَه بأنّه بائع الفواكه المُجفّفة، ثمّ عقَّب بأنه يُقال له البقَّال أيضاً[١]. ويدعم هذا التعريف ما ذكرته بعضُ كتب التّراجم العائدة إلى الحقبة ذاتها؛ فقد وصفت بعضَ التّجار بالفاميّ والبقّال في الوقت نفسه[٢].

كما ذُكِرت البضائع المُسلَّمَة مقترنةً بالاختصار (ط)، الذي فسّرناه بمعنى (الرطل). فقد كانت وحدة الوزن هذه هي الأكثر استخدامًا في الشرق الأوسط العربيّ، خاصّة بالنّسبة لهذا النوع من المواد. وفي دمشقَ كان الرطل يُعادل (٦٠٠) درهمٍ، أو بالوحدات المتريّة (١,٨٥) كغ[٣]. ونلاحظ أنّ عمليات التّسليم التي قام أبو الزهر بها كانت كبيرة؛ فمن أصل ثلاث وثلاثين عملية تسليم قام بها أثناء الحقبة التي تغطيها الوثيقة كان تسع وعشرون منها أكثر من (٣٠٠) رطلٍ؛ أي: أكثر من (٥٠٠) كغ، ففي يوم الثلاثاء ثالث شهر شوّال سلَّمَ (١٥٠٠) رطل؛ أي: ما يعادل (٢٧٧٥) كغ (الصفحة ٢- السطر ٢١). وللوهلة الأولى يبدو تسليم هذه الكميّة من المنتجات الزراعيّة في يوم واحد أمراً غير واردٍ، لكن إذا ما لجأنا إلى المبالغ الماليّة التي قبضها أبو الزهر سنجدها مرتفعةً للغاية أيضاً، فقد تمّ احتسابها دائماً بالدينار الذهبيّ؛ فبعد يومين من تسليم (١٥٠٠) رطل قبضَ أبو الزهر مبلغاً ضخماً مقداره (٢٠) ديناراً ذهبياً (الصفحة ١، السطر ٢٣).

يغطي سجلّ أبي الزهر حقبة تزيد قليلاً على ثلاثة عشر أسبوعًا (من ٩ رمضان إلى ١٣ ذي الحجّة)، يُدفع له فيها (١٨٨) ديناراً. وحتى تتضح قيمة هذا المبلغ لا بدَّ من وضعه في سياقه التاريخيّ والجغرافيّ؛ وذلك من خلال مقارنته مع ما جاء في عقود الزواج الدمشقيّة العائدة إلى المدّة ذاتها.

(١) ينظر اللباب في تهذيب الأنساب: ابن الأثير: ٢/ ٤١٠.

(٢) على سبيل المثال ذكر الذهبيّ في تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: ٣٤/ ٣٢٣ (أبو غالب الباقلانيّ، البقَّال، الفاميّ)، و ٥٢/ ٤٢٧ (أبو الحسن المحجّي الصَّالحي الفاميّ البقَّال).

(3) Hinz, W., Islamische Maße und Gewichte umgerechnet ins metrische System, Leiden 1970, 30-1.

وعنـد إلقـاء نظـرةٍ على مجموعـة وثائق دمشـق، المحفوظة في متحف الآثـار التركيّة والإسـلاميّة فـي إسـتانبول، نجـد أكبـر سلسـلة مـن الوثائـق الدمشـقيّة المتبقيّـة من هذه الحقبـة وفيهـا ذُكـر القيـم النقديّـة؛ ونقصد عقود الـزواج. فهذه العقـود تُـورّد دائمًا قيمة صـداق الـزواج للعرائـس، ونـرى أنّ هـذه الصُـدُق كانـت بشـكل عـامّ تُحتسـب بالدّرهـم الفضيّ فقط[١]. وبشـكل اسـتثنائي تطالعنا وثيقة من أوائل العصر المملوكيّ، كان الصَداق فيها عالياً وقدره عشـرة دنانير؛ وما ذاك إلّا لأنَّ الزوجين ينتميان إلى النخبة العسـكريّة[٢].

ومـن ثـمّ فإنّنـا ننظـر بوضوحٍ هنا إلـى عالم التجّـار الفعليّ؛ حيث حركة نقـل كميّاتٍ كبيـرة مـن البضائـع والأموال. والافتراض الأكثـر ترجيحًا هو أنّ تاجر السـوق الذي ما يزال مجهـولًا (الـذي سنسـميه فيمـا يلـي التاجـر (س)) كتب هذه الوثيقـة التي يبـدو فيها أبو الزهـر- باسـتمرار- شـخصاً غائبـاً. ولا بدَّ أنّ التاجـر (س) احتفظ بسـجلّاتٍ أكثر من مورِّد، ولسـهولة التعـرّف علـى السـجل الخـاصّ بأبـي الزهـر نجده يذكر اسـم أبـي الزهر خمس مـرّات. وكان أبـو الزهـر مـورِّداً وهـو إما وكيـلُ مزرعةٍ كبيـرة، وإمّا تاجرٌ يشـتري منتجات بعـض المزارعيـن فـي المناطق المجاورة لدمشـق ثـمّ يبيعها في سـوق المدينة.

وبنـاءً عليـه ليـس من المسـتغرَب أن يكون أبو الزهـر غير مُحدّد الهُويّـة في المصادر السـرديّة التـي تميـل إلـى التركيـز علـى النّخـب السياسـيّة وطبقـة العلمـاء والأعيـان، ونـرى الظاهـرة نفسـها فـي الوثائـق الدمشـقيّة الأخـرى العائدة إلـى هذه الحقبـة؛ على سـبيل المثـال: مـن بيـن أكثـر مـن (٣٠٠) شـخص ذُكروا فـي مجموعـة الوثائـق المتعلّقة بالممتلـكات مـن مجموعـة Şam Evrakları، تم التعرّف على أقلّ من عشـرة بالمائة[٣]، ويبـدو أنّ أبـا الزهـر لـم يكن شـخصاً بـارزاً حتى يجد مكاناً لـه في كتب السّـير والتّراجم.

(1) Mouton, J.-M./Sourdel, D./Sourdel-Thomine, J., Mariage et séparation à Damas au Moyen Âge: un corpus de 62 documents juridiques inédits entre 337/948 et 698/1299, Paris 2013, 40-45.

(2) Mouton/Sourdel/Sourdel-Thomine, Mariage et séparation, 234-37 (doc. 49).

(3) Mouton, J.-M./Sourdel, D./Sourdel-Thomine, J., Propriétés rurales et urbaines à Damas au Moyen Age: Un corpus de 73 documents juridiques entre 310/922 et 669/1271, Paris 2018, 81.

وعلى الرغم من أنّ الوثيقة تسرد أيام الأسبوع والأشهر إلّا أنّها لم تحدّد السنة؛ لذا فإنّه من المستحيل تعيين تاريخ المعاملات التجاريّة الواردة فيها بدقّة، ومع ذلك، فهناك مزيَّة واحدة لافتة للنظر في هذه الوثيقة، تسمح لنا بوضعها ضمن مدّة زمنيّة تزيد قليلاً عن القرن؛ فالعملة المستخدمة في حساب الأسعار هي الدينار الصوريّ، وقد بدأ إنتاج هذه العملة في مملكة القدس الفرنجيّة في عام (٥٣٠هـ/١١٤٠م)؛ بسبب ندرة العملات الذهبيّة الفاطميّة والبيزنطيّة المتداولة، وظلّ هذا الدينار، العملة الذهبيّة الرئيسة في سورية الأيوبيّة حتى بداية عصر المماليك[١].

وتتضح شعبيتها في دمشق من خلال مجموعة الوثائق المتعلّقة بالزواج المذكورة أعلاه؛ فإنّنا نجد وثائق من منتصف القرن السادس الهجريّ/ الثاني عشر الميلاديّ، حتى عام (٦٦٩هـ/١٢٦١م)، تستخدم الدينار الصوريّ[٢]؛ وهي المدّة الزمنيّة نفسها لتداول هذا الدينار، كما نراها بوضوح في الوثائق المتعلّقة بالممتلكات الدمشقيّة من مجموعة Şam Evrakları[٣]. وعلى ضوء ذلك يمكننا القول: إنَّ وثيقتنا تمّ إنتاجها على الأرجح بين عامي (٥٣٠هـ/ ١١٤٠م - ٦٦٩هـ/١٢٦٠م).

ومع أنّ السنة الزراعيّة لا تبدو مهمّة لتعميق فهمنا لهذه الوثيقة؛ لإنَّ المنتجات الزراعيّة المتداوَلة فيها كانت الفاكهة المجفّفة والحبوب المجفّفة، إلّا أنَّ تفاوت كميات البضاعة المُسلّمَة بين الأشهر الهجريّة المذكورة يمكن أن يقدم لنا بعض المعلومات على النحو الآتي:

الشهر	الكمية المُتسلمة	المجموع
رمضان	٤٢٥٢ رطلاً	٩٧٦٥ رطلاً
شوال	٥٥١٣ رطلاً	

(1) Heidemann, St., 'Economic Growth and Currency in Ayyubid Palestine', in R. Hillenbrand/S. Auld (eds), Ayyubid Jerusalem: The Holy City in Context 1187–1250, London 2009, 276-300.

(2) Mouton/Sourdel/Sourdel-Thomine, Mariage et séparation.

(3) Mouton/Sourdel/Sourdel-Thomine, Propriétés rurales et urbaines, docs 38 (559/1164) and 41 (late 6th/12th century).

ذو القعدة	٣٣٨٣ رطلاً	٦٢٤٣ رطلاً
ذو الحجة	٢٨٦٠ رطلاً	

ومن خلال هذه الإحصائيّة يمكن القول: إنّ ذروة البضائع المتداوَلة كانت في شهر شوّال؛ وذلك لارتباطه بحدثٍ استثنائيّ هو خروج قافلة الحجّ من دمشق إلى مكّة؛ ففي هذا الشهر تشهد دمشق تدفُّقاً هائلاً من الزوّار. فلطالما اجتذبت هذه القافلة آلاف الحجّاج من الأراضي المجاورة -خاصة الأناضول والأراضي الإسلاميّة الشرقيّة- إلى دمشق؛ للالتحاق بالقافلة المغادِرة في منتصف شوّال[١]. وخلال مدّة وجودهم في دمشق لم يكتفِ الحجّاج بزيارة الأماكن المقدّسة المحليّة؛ بل كانوا يتاجرون مع أهل الشام متاجرةً ذات فوائد للفريقين، حيث يبيعون ما حملوه معهم من مختلف المتاع، ويشترون لقاءه من المنتجات الشاميّة ما يروق لهم للاستعمال والمهاداة والمتاجرة[٢]، ومن ثَمَّ سيزداد الطلب على الموادّ الغذائيّة المجفّفة تزوّداً للسفر الطويل.

كما نشهد حركة نشطةً لعجلة المتاجرة في شهر رمضان؛ نتيجة ازدياد تدفُّق الحجّاج إلى المدينة، ولكن هذه الحركة تقلّ بنسبة ٣٠٪ عن مثيلتها في شوّال قبل مغادرة القافلة، وعليه فإنّ تدفّق الأعمال المتداولة بين التاجر (س) وأبي الزهر أو انحسارها يعكس إيقاع حركة الوافدين إلى المدينة بقصد الحجّ إلى بيت الله الحرام.

وللسبب عينه نلاحظ انخفاضاً كبيراً في الموادّ الغذائيّة المتداوَلة في شهر ذي القعدة بنسبة ٤٠٪ عن تلك المتداوَلة في شهر شوال، ولكن لا يمكننا مناقشة الكميّة المتداوَلة في شهر ذي الحجّة؛ لأنّها تغطي ثلاثة عشر يوماً منه فقط، وعليه فإنّ كميّة (٣٥٢٢) رطلاً الإضافيّة المبيعة في شهري رمضان وشوّال كانت بسبب زيادة عدد العملاء.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الوثيقة لا تُشير إلى أيّ مكان، ودليلنا على أنّها وثيقة

(1) ʿAnkawi, A., The pilgrimage to Mecca in Mamluk times, in R.B. Serjeant/B.L. Bidwell (eds), Arabian Studies I, London 1974, 146-170.

(٢) ينظر مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها: عبد العزيز العظمة: ١١٠.

دمشقيّة يعتمد على هويتها الحديثة؛ فهي جزء من مجموعة (Şam Evrakları) التي تعود بدورها إلى قبة الخزنة في الجامع الأمويّ بدمشق، وسنعود إلى هذه المجموعة لاحقاً، ويكفي أن نناقش هنا إطارها الإقليميّ بإيجاز؛ فإنّ القسم الأكبر من المواد في مجموعة (Şam Evrakları) هي أجزاء من نصوص غير وثائقيّة – مثل قطع المصاحف - التي يصعب عموماً تحديد موقعٍ جغرافيّ دقيق لها، ومع ذلك فإنّ المواد الوثائقيّة التي تمّ نشرها حتى الآن[1]، وخاصّة الوثائق المتعلّقة بالزواج، والمستندات المتعلّقة بالممتلكات المذكورة سابقاً[2]، فإنّها تُشير بشكلٍ شبه حتميّ إلى مدينة دمشق؛ وعليه فمن غير المحتمل كتابة هذه الوثيقة من قبل تاجرٍ في سوقٍ غير أسواق دمشق أو بعيداً عنها، ومن ثَمَّ إيداعه في قبّة الخزنة.

ومع اعتقادنا شبه المؤكّد بأنّنا نتعامل مع وثيقة دمشقيّة، إلّا أنّه يصعب وضعها داخل جغرافيّة المدينة؛ فقد كانت الفواكه المجفّفة والحبوب المجفّفة من السلع الأساسيّة التي تمّ تداولُها في أسواق المدينة، ولم تقدّم الوثيقةُ لنا أيّ دليلٍ عن مكان التداول، إلّا أنّنا نعرف أنّ المتداولَين؛ التاجر (س)، وأبا الزهر كانا يتاجران على نطاقٍ واسع، وأنّنا نبحث عن مكانٍ تجاريّ مركزيّ يجري فيه تصريف هذه الكميّات الضخمة من السلع الزراعيّة إلى الاقتصاد الحضريّ، ومن الواضح أنّ هذه التجارة لم تجرِ في بعض الأسواق النائيّة، فما نحتاج إليه إذن هو مصادر معاصِرة رصدت أسواق دمشق، ولكن للأسف إنَّ أقدم مسحٍ منهجيّ لتلك الأسواق كُتب بعد مرور أكثر من مئتي عام على وثيقتنا، وذلك في أواخر القرن التاسع الهجريّ/ الخامس عشر الميلاديّ[3]. ومع ذلك فهناك مصدرٌ خاصٌ يُتيح نظرةً فريدة على الأماكن الحضريّة في دمشق في تلك الحقبة؛ هو قيود طباق، والسّماع على المخطوطات.

إذ تذكر هذه القيود بانتظامٍ البيانات الطوبوغرافيّة التي لم تذكرها المصادر

(1) Mouton/Sourdel/Sourdel-Thomine, Mariage et séparation.

(2) Mouton/Sourdel/Sourdel-Thomine, Propriétés rurales et urbaines.

(٣) ينظر نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق: ابن عبد الهادي، تحقيق: حبيب الزيات، (المشرق) (٣٧)، (١٩٣٩): ١٨- ٢٨.

الأخرى، وخاصّة الأماكن ذات الطابع الشعبيّ أو غير المشهورة[١]، ففي إحدى هذه القيود العائدة إلى أوائل القرن الثامن الهجريّ/ الرابع عشر الميلاديّ، قرأنا أنّ إحدى المشارِكات في مجلس القراءة كانت نفيسة ابنة شمس الدين محمّد بن عبد الله بن سلامة الفاميّ بسوق اليغموريّة[٢] (انظر اللوحة ٣، السطران ١و٢)، وهذه الإشارة تقودَ -على الأرجح- إلى سوقٍ داخل أسوار المدينة في منطقة باب البريد إلى الغرب من المسجد الأمويّ، حيث تمّ تداول العديد من السلع (انظر الخريطة)[٣]. ويذكر ابن كثير في روايته أنّ حاكم المدينة الأيوبيّ جمال الدين بن يغمور قد وسَّع هذه المنطقة التجاريّة المزدحمة، وأعاد تنظيمها في منتصف القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ[٤]، ومن هنا جاء اسم السوق.

وعلى الرّغم من أنّ هناك سوقين آخرين مرتبطين بتجارة الفواكه والحبوب المجفّفة؛ هما سوق السّبعة بالقرب من باب توما إلى الشمال الشرقيّ من المدينة[٥]،

(1) Leder, St., 'Eine neue Quelle zur Stadtgeschichte von Damaskus. Zur Alltagsgeschichte der Haditwissenschaft', in H. Preißler/H. Stein (eds), Annäherung an das Fremde. XXVI. Deutscher Orientalistentag, Stuttgart 1998, 268-79.

(٢) إجازة القراءة بتاريخ (٧١٤هـ/١٣١٥م)، صحيح البخاريّ: البخاريّ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين، Wetzstein II 1326, fol. 257b.. إضافة إلى ذلك قمنا بفحص جميع من يحملون في اسمهم نسبة (الفاميّ) عند شتيفان ليدر، وياسين السواس، ومأمون الصاغرجي. معجم السماعات الدمشقية المنتخبة من سنة (٥٥٠) إلى سنة (٧٥٠هـ/ ١١٥٥) إلى (١٣٤٩م). مجلّدان، دمشق، ١٩٩٦م. فوقفنا على (٢٧) شخصاً، لكن أيّاً منهم لم يذكر عنه في أيٍّ سوقٍ كان يُتاجر. وقد استخرجت هذه الأسماء شتيفاني لوشار (برلين/ برينستون)، ونشكرها على مشاركتها بسخاء لهذه البيانات.

(٣) ينظر معجم دمشق التاريخيّ للأماكن والأحياء والمشيّدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرّخين: قتيبة الشهابيّ: ١/ ١٩.

(٤) ينظر البداية والنهاية: ابن كثير: ١٣/ ٢٠٧.

(٥) ذُكر هذا السوق في إجازة القراءة السابقة، حيث ورد «وفاطمة بنت محمّد بن عامر نقيب الشيخ أبي الرجال الفاميّ بالسبعة». صحيح البخاري، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين، Wetzstein II 1326, fol. 256a.. كما تمّ ذكر هذا السوق عند ابن عبد الهادي في نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق: ٢٧. لكنّه لم يُحدّد اختصاص هذا السوق في عصره. وكذلك عند قتيبة الشهابيّ في معجم دمشق: ٢/ ٣٧.

وسوق آخر في منطقة الصالحيّة شمال غربيّ المدينة[١]، فإنَّ كلا السوقين يقعان خارج أسوار المدينة في مناطق ذات أهمّية اقتصاديّة محدودة إلى حدٍّ ما، في حين كان باب البريد خلال حقبة المماليك أحد المنافذ الرئيسة الثلاثة لأنشطة التجارة، إلى جانب منطقة تحت القلعة والمنطقة الواقعة جنوبي المسجد الأمويّ[٢]، وعليه فمن المرجّح أن يكون أبو الزهر والتاجر (س) قاما بأعمالهما في سوق (اليغموريّة) المتميّز والمزدحم في قلب مدينة دمشق، وفي هذه الحالة يمكننا تضييق المدّة الزمنيّة لإنتاج هذه الوثيقة حتى منتصف القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ، بناءً على تاريخ وجود هذا السّوق.

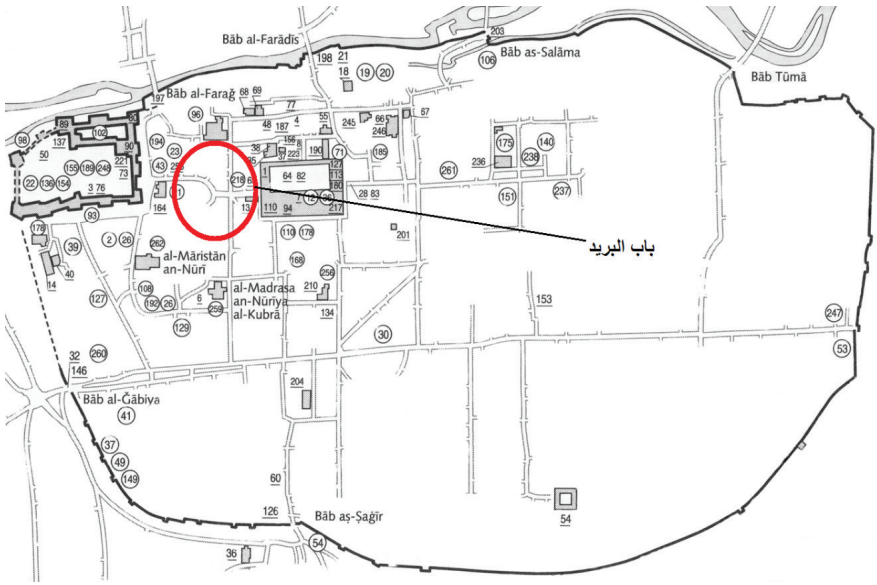

دمشق خلال العصر الأيوبيّ مع تسليط الضوء على منطقة (باب البريد).

© Korn, L., Ayyubidische Architektur in Ägypten und Syrien: Bautätigkeit im Kontext von Politik und Gesellschaft 564–658/1169–1260, Heidelberg 2004, I, 110.

توضّح الوثيقة أنّ أبا الزهر كان يأتي إلى السوق كلّ يومين أو ثلاثة أيام لتسليم

(١) ينظر المقتفى على كتاب الروضتين: البرزاليّ: ٢/ ق٢/ ٤٢٢.

(٢) ينظر أسواق دمشق القديمة: ١٦.

البضائع إلى التاجر (س)، وأحياناً يقوم بذلك في أيام متتالية، ومن المدهش حقّاً أنّه لم يكن هناك يوم عطلة بين هذين التاجرين؛ إذ استمرت المعاملات بينهما طوال أيام الأسبوع[1]. ومن الجدير بالذكر أنّ تسليم البضائع وقبض الثمن الذي تمّ تسجيله في قائمتين متمايزتين دلَّ على أنّ أبا الزهر لم يُسلِّم الكميّة المتَّفق عليها كاملة على الفور، في حين أنّ التاجر (س) قام بتسديد دُفعاتٍ مُسبَقة إلى أبي الزهر، الذي قام بشراء البضائع من المزارعين، ومن ثَمَّ تسليمها شيئاً فشيئاً؛ على سبيل المثال: تلقّى أبو الزهر خمسة وسبعين ديناراً حتى ٤ شوّال، مقابل (٦٦٠٠) رطلٍ؛ إلّا أنّه في الواقع لم يُسلِّم سوى (٥٧٠٠) رطلٍ حتى هذا التاريخ.

يدعم هذا الانطباع الحالات الخمس التي قام فيها التاجر (س) بتغيير المصطلحات المستخدمة مع المبالغ التي دفعها لأبي الزهر، فمصطلح (عنده) للدلالة على الدفع بعد البيع، بمعنى: حُوسِب، وقد استخدم هذا المصطلح ثلاث عشرة مرّة. وهناك حالتان يتمّ فيهما وصف عملية الدفع باستخدام المصطلح (عليه)؛ وهو يعني: الدَّين (الصفحة ١، الأسطر ٥-٦ و١٣-١٤) وكذلك نقرأ المصطلحين (بيده) (الصفحة ١، السطران ٨- ٩) و(معه) (الصفحة ٣، السطر١٦-ب) بمعنى: الدَّين من التاجر (س) لأبي الزهر. وبهذه الطريقة تلقّى أبو الزهر دفعةً مُسَبَقَة مقدارها ديناران، مقابل كميّة زَبيبٍ سيورِّدها (الصفحة ١، السطر ٢١-٢). وكما هو واضح في جميع هذه الحالات فإنّ التّاجر (س) أعطى مبالغ مُسَبَقَةً إلى أبي الزهر.

يتّضح هذا الترتيب القائم على الإرجاء في التسلّم والتسديد من حقيقة أنّ لدينا العديد من أيام التسليم التي لم يتمّ فيها الدفع على الإطلاق (على سبيل المثال: ١٦ و ٢٥ و ٣٠ من رمضان، وكذلك: ٧ و ١٣ و ١٥ و ١٨ و ٢٦ و ٢٨ من شوّال).

إضافة إلى ذلك إذا ما تلقّى أبو الزهر مبالغَ في الأيام التي سلّم بضائع فيها؛ فإنّ المبلغ الذي حصل عليه لا علاقة له بكميّة البضائع التي سلّمها، على سبيل المثال:

(١) جرت المعاملات خلال كامل أيام الأسبوع على النحو الآتي: الاثنين: ٧، الثلاثاء: ٦، الأربعاء: ٨، الخميس: ١١، الجمعة: ٢، السبت: ٨، الأحد: ٩.

في يوم الاثنين الثامن عشر من شهر رمضان، سلَّم (٣٤٣) رطلاً، وقبض خمسة عشر ديناراً، لكن عندما سلّم الكميّة نفسها تقريباً بعد ستة أيام، في يوم السبت ٢٣ شهر رمضان لم يتلقَّ سوى دينارٍ واحد.

وهذا الترتيب القائم على الإرجاء في التسلّم والتسديد يُوضّح أنَّ التّاجر (س) كان يثق بأبي الزهر، ولكنّ الثّقة كانت متبادلةً بين الرجلين؛ إذ نجد أبا الزهر لم يتقاضَ كامل حقّه في نهاية الحساب الثاني، بل بقي له في ذمّة التاجر (س) تسعة دنانير صوريّة. في الحقيقة إنَّ الالتزامات النقديّة العديدة والمتغيّرة بين التاجرين لم تكن مصحوبة بوثائق معترف بها رسميّاً في المحاكم، ولكنّها مبنيّة على الثّقة المتبادلة بينهما.

ونظراً لتوقّف عمليات التسليم والدفع، كان التاجر (س) يُجري جرداً من وقت إلى آخر لموازنة حسابه، وفي هذه الوثيقة نرى اثنتين من عمليّات الجرد الختاميّة، تُغطي كلٌّ منهما ستة أسابيع إلى سبعة أسابيع؛ ففي ختام الحساب الأول (الصفحة ٣، الأسطر ١١-١٨، الذي غطّى معظم شهر رمضان وكلّ شوّال)، نرى أنّ التاجر (س) قد دفع بالفعل مبلغاً إضافيّاً لأبي الزهر في هذه المدّة؛ قدره تسعة دنانير، ومع ذلك لم يطلب سَداد هذا المبلغ، ولكن تمّ تسجيله فقط على أنّه (متبقٍّ) لدى أبي الزهر، وفي المقابل يُظهر ختام الحساب الثاني (الصفحة ٤، الأسطر ٢٠-٢٥، الذي غطّى شهر ذي القعدة كلّه، والأسبوعين الأوّلَين من ذي الحجة). التاجر (س) يؤجِّل تسديد تسعة دنانير من مستحقّات أبي الزهر، مرّة أخرى تمّ تسجيل الدَّين في حينه، وتمّ ترحيله -على ما يبدو- إلى المدّة المحاسبية التالية.

توضّح الحسابات الختاميّة أنّ الوثيقة لا تسجّل سوى جزء من عمليات تبادل السلع والأموال التي حدثت بين التّاجر (س) وأبي الزهر؛ لأنّه في موازاة ذلك يجب أن تكون هناك اتفاقيات إضافيّة غير معروفة لنا؛ إما كتابيّة (ولكن غير متوفرة لنا)، وإمّا شفهيّة؛ على سبيل المثال: في الحساب الختاميّ الأول كان إجماليّ البضاعة المُسلَّمة (١٠٨٣٤) رطلاً، لكن هذا لا يتطابق مع مجموع الشحنات الفرديّة المسجّلة في الوثيقة؛ وهو(٩٧٦٥) رطلاً، على أنّ المبلغ الإجماليّ المدفوع لأبي الزهر -كما هو مسجّل في الحساب الختاميّ الأول- هو (١٣١) ديناراً، وعلى العكس من ذلك فإنّ

المبلغ الإجماليّ للبضائع المُسلَّمة في الحساب الختاميّ الثاني تطابق تماماً مجموع الشحنات المُستلَمة؛ وهي (٦٢٤٣) رطلاً، ومع ذلك لا يتطابق في هذا الحساب المبلغ الذي قبضه أبو الزهر مع المبلغ المُستحقّ له. هذه التناقضات ليست مفاجئة للغاية؛ لأنّنا نتعامل مع دفتر غير رسميّ، وليس وثيقةً ملزِمة أمام القضاء؛ لذلك ينبهوننا إلى حقيقة أنّ الوثيقة توفّر لنا-فقط- لمحةً سريعة عن العلاقات التجاريّة التي كانت أكثر شمولاً، والتي استلزمت أوراقاً و/ أو ترتيبات شفهيّة أخرى.

من الجليّ أن السؤال الرئيس المتبقّي هو ما البضائع التي سلَّمها أبو الزهر إلى التّاجر (س)؟ إنَّ الوثيقة بشكلٍ عامّ صامتة في هذا الجانب، لكن في قائمة الدّفع التي تسبق الحساب الختاميّ الأول، نجد إشارتين إلى نوعية السلع المسلَّمة، وفي كلتا الحالتين كانت (الزبيب)، أمّا في المدَّة التي يُغطّيها إغلاق الحساب الثاني نجد إشارةً إلى (الباقلاء).

إنّ الإشارة الأولى إلى (الزبيب) والثانية إلى (الباقلاء) كلتاهما سُبقتا بعبارة: (يتلوه ثمن زبيب/ باقلاء)؛ وهذا يعني أنّنا نرى تحوّلاً في المنتج الذي سلّمه أبو الزهر إلى التّاجر (س). وهذا مهمٌّ بشكلٍ خاصّ لمدّة المحاسبة الثانية؛ حيث سلَّم أبو الزهر حتى ١٨ ذي القعدة (٢١٣٥) رطلاً من منتج معيَّن، وبعده (٤١٠٨) أرطالٍ من الباقلاء، ونظراً لأنّ (الزّبيب) هو المادّة المسلَّمة في المدّة المحاسبيَّة الأولى يمكن افتراض أن الـ (٢١٣٥) رطلاً في النصف الأول من المدّة المحاسبيّة الثانية كانت زبيباً أيضاً، بناءً على ذلك يمكن تقسيم عمليات تسليم أبي الزهر إلى أربع مُدَدٍ مختلفة وفقاً للبضائع المتداولة:

١- حتى التاسع من شهر رمضان، سلّم شحنةً واحدة قدرها (٤٣٥) رطلاً، والمنتج غير معروف.

ملاحظة: يتلوه ثمن زبيب.

٢- الحادي عشر من شهر رمضان إلى الثامن والعشرين من شوّال، (٢١) عملية تسليم بمقدار (٩٣٣٠) رطلَ زبيب.

إغلاق الحساب الأول وبداية المدّة المحاسبيّة الثانية.

٣- الرابع من ذي القعدة إلى الثامن عشر من ذي القعدة، (٥) شحنات بمقدار (٢١٣٥) رطلَ زبيب.

ملاحظة: يتلوه ثمن باقلاء.

٤- الثاني والعشرون من ذي القعدة إلى الثاني عشر من ذي الحجّة، (٦) شحنات بمقدار (٤١٠٨) أرطال باقلاء.

إغلاق الحساب الثاني.

إذا تمكّنا من تثبيت البضائع بهذه الطريقة، فيمكننا أيضاً تقديم بيان عن أسعارها التقريبيّة؛ فالحساب الختاميّ الأول يُعطي صراحةً سعراً منفرداً لرطل الزبيب، وهو أنّ ثمن كلّ (٨٨) رطلَ زبيب دينارٌ صوريٌّ واحد. أمّا في الحساب الختاميّ الثاني فإنّنا نعلم أنّ أبا الزهر حصل على (٦٦) ديناراً مقابل (٦٢٤٣) رطلاً، لكن هذه الكميّة مكوّنة من (٢١٣٥) رطلَ زبيب، و(٤١٠٨) أرطال باقلاء. وعلى اعتبار كلّ (٨٨) رطلَ زبيب بدينار يكون سعر (٢١٣٥) رطلَ زبيب (٢٤,٢) ديناراً. وعليه فإنّ الباقي هو (٤١٠٨) أرطال باقلاء، ولكن بقي منها (٣٥) رطلاً غير مبيعة ولم تدخل ضمن الحساب، إذاً قيمة (٤٠٧٣) رطلَ باقلاء هي (٤١,٨) ديناراً؛ أي: إنّ كلّ (٩٧) رطلَ باقلاء بدينار صوريّ واحد. وهذا ما يدعم الحجّة القائلة بأنّ لدينا مُنتَجَين مختلفَين في المدّة المحاسبيّة الثانية.

الممارسات الكتابيّة والأرشيفيّة

بعد مناقشة الممارسات الاقتصاديّة كما بدت في هذه الوثيقة، يجدر بنا الانتقال إلى الممارسات الكتابيّة والأرشيفيّة التي يمكننا استنتاجها. فكما رأينا، يجب أن يكون لدى التّاجر (س) العديد من المورِّدين الذين احتفظ لهم بحسابات منفصلة؛ أحدهم هو ثَبت أبي الزهر الفاميّ. إنّ التّاجر (س) سجّل معاملاته مع كلٍّ من هؤلاء المورِّدين في سجّلاتٍ منفصلة، تتكون هذه السجلّات بدورها من ورقةٍ قائمة بذاتها تمّ طيّها رأسيّاً في الوسط - وخط الطيّ مرئيّ تماماً- ومن الواضح أنّ التّاجر (س) لم يستخدم كتيّبات تتألّف من عدّة أوراق مخيّطَة معاً؛ لأنّه في هذه الحالة يجب أن نجد ثقوب الخياطة في الطيّة الوسطى أو بالقرب منها، ولكن لا يوجد أيٍّ منها (انظر اللوحتين ١ و ٢)، إضافة إلى ذلك فإنّ الوثيقة تسجّل عمليتيّ الدفع والتسليم في سلسلة متتالية

من الأشهر الأربعة الأخيرة من شهر رمضان إلى ذي الحجّة؛ ممّا يرجّح أنّ التاجر (س) استخدم أوراقاً فرديّة. فلو كانت الوثيقة (١٣٣٢٧) (Şam Evrakları) عبارة عن ورقة من كتيّبٍ لكان لدينا فاصل بين الصفحة الثانية والصفحة الثالثة؛ حيث سيتمّ وضع ورقةٍ أو عدّة أوراق، إلّا إذا كانت الوثيقة (١٣٣٢٧) (Şam Evrakları) بمحض المصادفة هي الورقة العليا من كتيّبٍ واحد من هذا القبيل. يُبيِّن الشكل (١) الورقة كما تمّ استخدامها فعلياً، وذلك على شكل ورقةٍ فرديّة، ونرى هنا أنّ الصفحتين الداخليّتين من الورقة المطويّة تواجهان بعضهما بعضاً، بحيث يكون لدينا تسلسل منطقيّ للمدفوعات وعمليات التسليم بين الصفحتين الثانية والثالثة، كما يوضّح الشكل (٢) ما الذي كان يمكن أن يحدث لو تمّ وضع ورقةٍ أخرى واحدة أعلى الوثيقة لإصدار كُتيّب؛ إذاً ستكون الصفحتان الثانية والثالثة قد أصبحتا الصفحتين الثانية والسابعة، ممّا يؤدّي إلى انقطاع بين عمليتي التّسلم والتّسديد المتسلسلة، كما لا يمكن أن تكون هي الورقة العليا ضمن كُتيّبٍ؛ لعدم وجود ثقوب الخياطة.

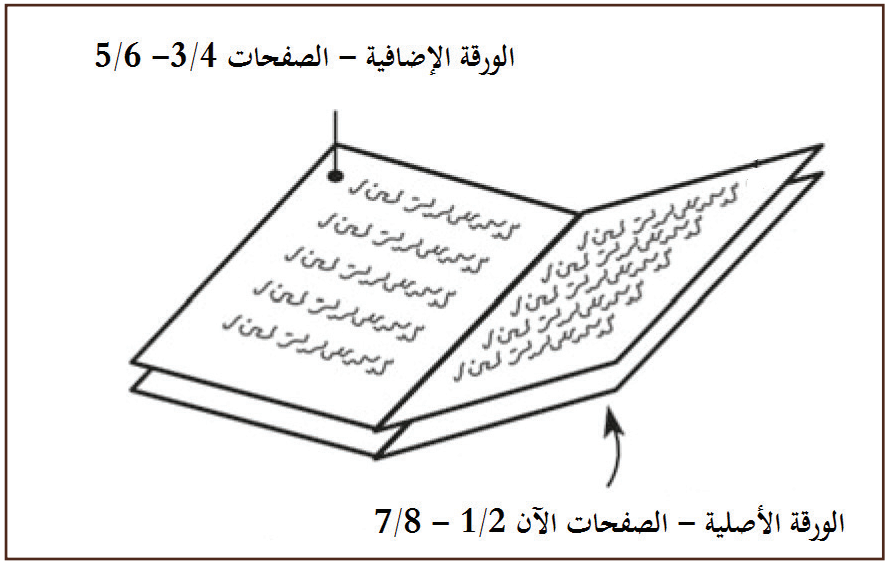

الشكل٢: افتراضيّةُ دفترٍ من صفحتين بعد إضافة المستخدم ورقةً أخرى لإنتاج كُتيّب من ثماني صفحات بناءً على

Gacek, Vademecum, p. 210. © Brill/Adam Gacek

بناءً على هذه الحجّة، كانت الوثيقة (١٣٣٢٧ Şam Evrakları) عبارة عن ورقة قائمة بذاتها. لذا اخترنا الإشارة إليها (الصفحة الأولى) و(الصفحة الثانية) وما إلى ذلك في سياق هذه المقالة على النحو الآتي:

الصفحة الأولى: الورقة ١ / الوجه / اليساريّ.

الصفحة الثانية: الورقة ١ / الظهر / اليمينيّ.

الصفحة الثالثة: الورقة ١ / الوجه / اليساريّ.

الصفحة الرابعة: الورقة ١ / الظهر / اليمينيّ.

وتؤكّد أكبر مجموعةٍ من الأوراق الورقيّة المشابهة والعائدة إلى بلاد الشام، الحجّة التي مفادها أنّ الأوراق الفرديّة كانت تُستخدم لمثل هذه الوثائق التي تمّ إنتاجها في سياق الكتابة اليوميّة؛ إذ تحتوي مجموعة وثائق الحرم الشريف من القدس المملوكيّة أواخر القرن الثامن الهجريّ/ الرابع عشر الميلاديّ، على العديد من الأوراق المستقلّة المطويّة في الوسط، والتي دعاها دونالد ليتل (دفاتر)[١].

لقد تمّ الاحتفاظ بمثل هذه الدفاتر من قبل العديد من الجهات الفاعلة في عالم القدس الكتابيّ، ولا سيّما شهود العدل ومتولّي الأوقاف الذين لا يدخلون في دائرة اهتمامنا هنا[٢]. ومع ذلك فهناك مجموعة فرعيّة واحدة من هذه الدفاتر لها صلة مباشرة بمناقشتنا؛ وهي ما ناقشه كريستيان مولر تحت عنوان (حساب عنده)، الذي تمّ إنتاجه في بيوت التّجار، وخاصّةً الحساب العائد إلى تاجر يُدعى علاء الدين الحَمَويّ؛ الذي احتلّ مكانةً بارزة في وثائق الحرم الشريف[٣]، كتب كاتب الحَمَويّ

(1) Little, D.P., A Catalogue of the Islamic Documents from Al-Ḥaram Aš-Šarif in Jerusalem, Beirut 1984.

(2) Discarded ʿinda-accounts from a notary witness context dated to the late 9th/15th-century Damascus can be found as reused binding material in Damascene composite manuscripts (cf. Hirschler, K., A Monument to Medieval Syrian Book Culture. The Library of Ibn ʿAbd al-Hādī, Edinburgh 2019 (forthcoming).

(3) Müller, Ch., Der Kadi und seine Zeugen: Studie der mamlukischen *Ḥ*aram-Dokumente aus Jerusalem, Wiesbaden 2013.

أو كتب هو نفسه هذه الحسابات على أوراقٍ قائمة بذاتها، مثلما فعل التّاجر (س) أو كاتبه.

لقد تمّت كتابة حسابات القدس بشكلٍ عامّ على ورقةٍ منفصلة كما نراها في وثيقتنا، وقد حرص الكاتب المعنيّ على عدم ملء الورقة بالكتابة والتدوين؛ لكي تظلّ الصفحات مقروءة عند طيّ الورقة.

وعند النظر إلى مجموعة دفاتر القدس، نجد أنّ أبعادها تتشابه بشكلٍ لافت للنظر مع أبعاد وثيقة أبي الزهر، (٢٠× ٢٨ سم)؛ ممّا يشير إلى نوعٍ من العُرف السائد في بلاد الشام لإنتاج مثل هذه الوثائق العمليّة. فأوراق دفاتر القدس كلها ذات تنسيقٍ مماثل (١٩ × ٢٧ سم)تقريباً. وعلى الأرجح يمكن قول الشيء نفسه عن مجموعة الحسابات المصريّة المحفوظة في فيينا[1]، وممّا لا يُثير الدهشة أنّ سجلّ أبي الزهر مثله مثل دفاترالقدس، كان مكتوباً على الورق. فبحلول القرنين السادس الهجريّ/ الثاني عشر الميلاديّ، والسابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ، كانت الرّقوق كحامل نصوصٍ مهجورة منذ مدّة طويلة في دمشق، باستثناء بعض الوثائق الرسميّة التي كانت مُخصّصةً للحفظ على المدى الطويل؛ مثل: عقود الزواج[2].

وبعدما أخرج التّاجر (س) الورقة وطواها رأسياً إلى نصفين، وضع العنوان نفسه في الصفحة الأولى والثانية: (ثبت حساب أبو الزهر فامي). وخصّص الصفحة الأولى لقائمة المدفوعات، في حين جعل الصفحة الثانية لقائمة المتسلّمات وبدأ كلتا القائمتين بيوم السبت التاسع من شهر رمضان، وهو اليوم الذي قام فيه أبو الزهر بتسليم بضائعه وتسلُّم المال.

وخلال الأسابيع السبعة التالية أدخل في هاتين القائمتين المتمايزتين مدفوعاتٍ، و/ أو عمليات تسليم إضافيّة فور حدوثها. ونظراً لقيام أبي الزهر باثنتين وعشرين عمليةَ

(1) Müller, Der Kadi und seine Zeugen, 39.

(2) See Mouton/Sourdel/Sourdel-Thomine, Mariage et séparation where c. 80% of the corpus are parchment sheets.

تسليم، وتلقّيه ثلاث عشرة دفعةً ماليّة خلال هذه المدّة، لم تكفِ الصفحة الأولى لتسجيل المدفوعات الماليّة كلّها، فاضطر إلى استخدام الصفحة الثالثة لتسجيل عمليات الدفع الباقية. والذي وضعه في هذا الوضع المحرج اختياره الترتيب العكسيّ للقوائم؛ فقد خصّص الصفحة الأولى لقائمة المدفوعات، والصفحة الثانية لقائمة المستلّمات، ممّا اضطره إلى القفز إلى الصفحة الثالثة لاستكمال المدفوعات، لذلك من الإنصاف أن نفترض أنّ ترتيب القوائم هذا، كان قراراً واعياً من التّاجر (س)، وأنّ ارتفاع عدد عمليات التسليم كان جزءاً من ممارساته التجاريّة المعتادة التي عليه التعامل معها.

وعلى جانبٍ آخر، تُعدُّ اللغة المستخدَمة في هذه الوثيقة نموذجاً عن لغة التجّار في دمشق في الحقبة المدروسة؛ من حيث أنّ الكاتب لم يهتمّ دائماً بالقضايا النحويّة، خاصّةً ضبط إعراب التمييز بحسب سياق الكلام، إذ لم يستخدم (ديناراً) مطلقاً مع الأعداد من (١١ إلى ٩٩)، ومع ذلك فإنّنا نرى أنّه استخدم التمييز على وجهه الصحيح مع الأرقام من (١ إلى ١٠)، وهناك بضع زلّاتٍ من القلم عندما يضع الأرقام في المذكر بدلاً من المؤنث[١]، أو المؤنث بدلًا من المذكر[٢]. أمّا المزيّة الأكثر تواتراً عنده فهي تجاهله بشكلٍ متكرر حرف العطف(و) في الأعداد المركبة[٣].

وعلى المنوال نفسه، يتمّ تجاهل الضبط النحويّ الصحيح لاسم العَلَم؛ بحيث يكون لدينا (ثبت حساب أبو الزهر) بدلاً من (ثبت حساب أبي الزهر)، و (ذو القعدة) بدلاً من (ذي القعدة)[٤]، ومع ذلك تعرض الوثيقة مزايا أخرى نموذجيّة للغة العربيّة في هذه الحقبة؛ مثل: حذف الألف الممدودة في كلمة (الثلثا) بدلاً من (الثلاثاء)، وكتابة كلمة (مائتي) بدلاً من (مائتين)[٥].

---

(١) ينظر الصفحة٢، السطر٣.

(٢) ينظر الصفة ٣، السطر٢.

(٣) ينظر الصفحة٢: الأسطر: ٧، ٩، ١٠، ١٣، ١٥، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، الصفحة٣: الأسطر، ٤، ٦، ٩، ١٦، الصفحة٤: الأسطر٥، ١٢، ١٣، ١٥.

(٤) ينظر الصفحة٣: (يوم الأحد ثامن ذو القعدة)، الصفحة٤: الأسطر، ٣، ٥، ٧، ١٢، ١٥.

(٥) الصفحة٢: السطر١٥ ٢، الصفحة٣: السطران، ٦،٩ ، الصفحة٤: الأسطر،٩،١٣،٢١.

أمّا من ناحية الشكل والتنظيم فتتضح الطبيعة العمليّة للوثيقة من تنظيمها الأنيق نسبياً - ويتلمّس المرء هذا الترتيب بمجرد أن يفهم منطق الوثيقة الذي يبدو فوضويّاً للوهلة الأولى- والذي يسمح بالوصول السريع إلى المعلومات؛ فقد أتاح العنوانان الموجودان في الصفحة الأولى والثانية، التحديد السريع لهُويّة الوثيقة التي كان يبحث عنها المرء عندما وصل أحد المورِّدين، وسنرى لاحقاً أنّ هذا العنوان كان له أيضاً وظيفة أرشيفيّة.

كما أنَّ الحفاظ على قائمتين متمايزتين للتّسليم والتّسديد سهّل بشكلٍ حاسمٍ التنقّل ضمن الوثيقة؛ إذ حرص كاتب الوثيقة على عدم الكتابة فوق خطّ الطي، وينطبق الأمر نفسه على كتَبَة الدفاتر في مجموعة (الحرم الشريف)؛ للتأكّد من أنّ الوثيقة ستظلّ مقروءةً عند طيّها. كما تمّ تنظيم كلّ قائمةٍ من القوائم في عمودين متمايزين؛ حيث يأتي التاريخ دائماً أولاً، وقد تمَّ فصل العمودين بشكلٍ معقول؛ للسماح بالتصفّح السريع للصفحة. أخيراً تمّ تمييز أقسام الحساب الختاميّ بخطّ أفقيّ فاصل، كما تمّ إلغاء طريقة العمودين في هذا الجزء والتحوّل إلى الكتابة على امتداد الصفحة.

لقد عكست الوثيقة بوضوح الأعمال المستمرة في السوق، على سبيل المثال: ارتكب التّاجر (س) خطأً يوم السبت ١٦ من شهر رمضان؛ حيث خطأ بسبب تسارُع أعماله عندما سجّل عمليات التّسليم في قائمة الدّفع، لكنّ الخطأ لم يلاحظه أحدٌ؛ لأنّ أبا الزهر لم يتلقَ أيّة دفعاتٍ في هذا التاريخ، وعندما عاد أبو الزهر بعد يومين مع تسليمٍ آخر، وضع التّاجر (س) مرّة أخرى الوزن في قائمة المدفوعات، لكنّه بعد ذلك أدرك خطأه؛ لأنّه دفع لأبي الزهر هذه المرّة، وهكذا شطب إدخالات التّسليم الخاطئة في قائمة الدفع، ووضعها في المكان المناسب في الصفحة الثانية.

وبصرف النظر عن الأخطاء، تُظهر القائمةُ أنّ أيّ تخطيطٍ مُسبَقٍ يمكن أن يصل إلى حائط مسدود على أرض الواقع، ممّا يتطلّب حلولاً خاصّة؛ ففي الصفحة الأولى نرى أنّ الدفعة الثالثة عشرة لم تكن لها مساحة كافية في الصفحة، وعلى سبيل المعالجة السريعة سجّل التاجر(س) الدفعة الأخيرة من مدّة التداول بشكلٍ عموديّ

بين العمودين؛ ممّا يعني أنّ التخطيط كان أقلّ ترتيباً في هذا المكان (انظر الصفحة الأولى).

ثمّ جاء وقت إغلاق الحساب الأول بعد سبعة أسابيع، وقد ضَمنّا حتى الآن أنَّ طولَ هذه المدّة حدّدته الحاجةُ البسيطة إلى الموازنة بين المبالغ الزائدة والكميّات الناقصة، كما تقترح الممارسة الوثائقيّة عاملاً آخر في اختيار نقطة الحساب الختاميّ؛ إذ يجب أن يكون إدخال الدفعة النهائيّة قد جاء في وضعٍ محرج، لا بدّ معه من إغلاق الحساب. لذلك نجد تحوّلاً في أسلوب التّاجر (س) إلى الكتابة الأفقيّة، ملغياً نظام العمودين، قاصداً بذلك تثبيت النتيجة النهائيّة وحسب.

وبعدما تمّت تسوية الحساب، تمّ شطب قوائم الدفع والتسليم لتلك المدّة؛ وذلك باستخدام المصطلح (حُوسب عليها) المكتوب رأسيّاً وسط العمودين في معظم الصفحة، وكذلك استخدام (حُوسب) إلى يسار الحساب النهائيّ، ممّا لا يدع شكّاً في نهاية هذه العملية ونهاية هذه المدّة المحاسبيّة.

أمّا المدّة المحاسبيّة الثانية، فيتغير فيها تنظيم الوثيقة نسبيّاً؛ فقد استخدم التّاجر (س) الصفحة الفارغة الوحيدة المتبقية من الورقة؛ أي: الصفحة الرابعة، لكتابة قائمة التسلُّم التي كان يعلم أنّها ستكون الأطول، ولإدراكه أنّه لا توجد صفحة متبقية لقائمة المبالغ المسدّدة، قام بضغط مدفوعات هذه المدّة في المساحات الفارغة حول سطور الحساب الأول في الصفحة الثالثة، ومن المؤكّد أنّ هذا لم يكن تخطيطاً يضمن الاسترجاع السريع للمعلومات، ولكن يبدو أنّ استخدامه كلّ مساحةٍ فارغة في هذه الورقة بطريقة فعّالة كان ذا أولوية عاليّة عنده؛ لأنّ الخيار الآخر الوحيد هو ترك الصفحة الرابعة خالية والبدء ورقة جديدة، وبمجرد الانتهاء من هذه المدّة المحاسبيّة كُتب إغلاق الحساب الثاني في أسفل الصفحة الرابعة.

أنهى الحساب الختاميّ المرحلة الأولى، المرحلة النشطة، من دورة حياة هذه الوثيقة بعد أكثر من ثلاثة عشر أسبوعاً بقليل، خلال هذه المرحلة، تمّ استخدام الوثيقة بنشاطٍ لتسجيل تبادل البضائع، والأموال، وموازنتها. كما يمكن عزو خطّ الطيّ الأفقيّ

الموجود في الوثيقة إلى هذه المرحلة، ومن الممكن نظريّاً أيضاً أن يكون طيّ المستند بهذا الشكل قد تمَّ في وقتٍ لاحق في المرحلة الثانية، مرحلة الأرشفة، لكن من خلال مناقشة هذه المرحلة أدناه تبيّن أنّ هذا قليل الاحتمال، ومن السهل تخيّل التّاجر (س) يطوي هذه الوثيقة؛ لسهولة حملها مع باقي الدفاتر أثناء تنقُّله بين المنزل والسوق.

لا تتضح المرحلة الثانية من دورة حياة الوثيقة -وهي (مرحلة الأرشفة)- من الأدلّة النصيّة الموجودة فيها، ولكن لدينا بعض الأدلّة الماديّة؛ مثل: الثقب الذي نراه أعلى قليلاً من خطّ الطيّ الأفقيّ في وسط الصفحة. قد يبدو هذا الثقب عرضيّاً لوكانت هذه الوثيقة وحيدة، إلّا أنّ هذه الثقوب في هذا الموضع شائعة جداً في وثائق العصرَين الأيوبيّ والمملوكيّ، كما أنّها تُعدّ أيضاً عنصراً رئيساً في مجموعة الحرم الشريف في كلٍّ من الدفاتر المطويّة، والصحف المسطَّحة.

وقد اقترحت ديزي ليفينغستون فيما يتعلّق بالصّحف المسطَّحة أنّ هذه الثقوب استُخدمت لتمرير الخيط الناظم لمجموعة بعض السجلّات مع بعضها الآخر في مرحلة الأرشفة، وفي الواقع ما زال هذا الخيط موجوداً في وثيقةٍ واحدة من هذه المجموعة رقمها (٥٠٧)[1]. كما تُشير هذه الثقوب إلى أنّ الأوراق كانت مكدّسةً فوق بعضها بعضاً، ومثقوبة ومترابطة ومحفوظة؛ للوصول إليها لاحقاً.

وبالعودة إلى حسابات علاء الدين الحَمَويّ؛ تلك الوثائق التي ينتظمها السّياق الاجتماعيّ نفسه لوثيقتنا والشكل الماديّ نفسه، نجد فيها أيضاً فتحتين لتمرير الخيط النّاظم (على سبيل المثال: الرقمان (٥٨٣) و (٥٨٥)، والشيء نفسه ينطبق على وثائق فيينا. وقد كانت ديزي ليفينغستون أول من أجرى مناقشةً جوهريّة لطريقة حفظ الوثائق بنظام الثقوب والخيوط.

وعليه يمكننا افتراض أنّ التّاجر (س) احتفظ بحُزَم الوثائق في متجره أو منزله؛ ليمكنه العودة إليها عند الحاجة، وعندما تراكمت الحسابات احتاج مستخدم الأرشيف

(1) Livingston, Managing Paperwork, 144-5. ينظر اللوحة4

إلى طريقةٍ لتحديد المستند الذي يبحث عنه بسرعة. فأيّة طريقة هذه؟ في الحقيقة تُعدّ سجلّات التّركات من مجموعة (الحرم الشريف)، الوحيدة التي كانت تمتلك نظاماً لتدوين الترويسات أعلى الوثائق؛ ممّا سمح لمستخدميها بتحديد المحتوى الرئيس للوثيقة المعنيّة بسرعةٍ عند تقليب الأوراق؛ إضافة إلى ذلك تُشير هذه الترويسات إلى أن الحُزَم تم ترتيبها على السنوات؛ لأن الترويسات لم تحوِ سوى اسم المتوفى واسم الشهر. وعليه لا بدَّ من أن تكون الحُزَم رُتبت على أساس السنوات[1].

على الأرجح لم يكن لدى التّاجر (س) نظام ملّفاتٍ متطوّر مثل نظام قضاة القدس، ومع ذلك يمكن للعنوان الموجود أعلى الصفحة الأولى من الوثيقة ووسطها (ثبت حساب أبو الزهر فامي) أن يلعب دوراً كترويسة للحفظ والاسترجاع في المرحلة الثانية للوثيقة أيضاً. فعند تمرير الأوراق الموجودة في حُزمة معيّنة يسمح العنوان البارز في تحديد محتوى الوثيقة بسرعة.

لقد تمّ استكمال عنوان الوثيقة من خلال التاريخ الأول الذي كُتب بطريقةٍ مميَّزة، فعلى عكس باقي إدخالات الدفع الأخرى نجد ترويسة التاريخ هنا لا يقابلها المبلغ المدفوع، كما تمّ رفعها للأعلى نحو العنوان، ولم تُسبق بالمصطَلحين المعتادَين (عنده، أو عليه) المقترنين بالتواريخ الأخرى في هذه الصفحة، إضافة إلى ذلك تمّ تقديم الشهر بالتفصيل هكذا: (شهر رمضان) في حين أنّنا لا نجد في باقي الصفحة سوى (الشهر)، أو (رمضان). أخيراً تمت كتابة العنوان وكلمة (شهر) بخطٍّ واضحٍ، نتيجة لذلك كان بإمكان مستخدم الأرشيف أو حُزمة الوثائق هذه، إلقاء نظرةٍ سريعة على الترويسة المؤلّفة من العنوان والتاريخ؛ ليقف على محتوى الوثيقة والحقبة.

ولعلّ الأهمّ من ذلك أنّ الترويسة تمّ وضعها على الوثيقة مباشرة فور كتابتها؛ لأنّه لا يمكن كتابة التاريخ الأول لاحقاً. وهكذا فكّر التّاجر (س) بوضوحٍ في أوراقه من الناحية الأرشيفيّة منذ البداية، في حين يُشير غياب البند الرئيس من المعلومات عن

(1) Livingston, Managing Paperwork, 142-5.

الترويسة؛ أي: السنة، إلى أنّ التّاجر (س) رتَّبَ أعماله الورقيّة على أساس السنوات، تماماً كما فعل مؤرشفو سجلّات التّركات في القدس، ومن ثَمَّ فقد ضمَّت الحُزمة الأرشيفيّة في بيته أو متجره سجلّات موردِّين مختلفين، ولكن على امتداد السنة نفسها.

ومع علمنا الآن أنّ هذه الوثيقة كان لها مرحلة أرشيفيّة ثانية في دورة حياتها، إلّا أنّه يصعب علينا تحديد عمر هذه المرحلة[١]، لكن من الواضح أنّ الممارسة الأرشيفيّة هذه لم تكن مصمّمة لتبقى محفوظةً قروناً من الزمن، بل يجب أن يُنظر إليها في سياق ثقافة العامّة. إذ تُشير حالة سجلّات الحَمَويّ إلى أنّه احتفظ ببعضها على الأقل طوال حياته، وإلّا فكيف أصبحت جزءاً من ممتلكاته التي شقَّت طريقها إلى مجموعة الحرم الشريف؟ وعلى النقيض من ذلك نعلم أنّ بعض الدفاتر التي أنتجها شاهد من كتّاب العدل الدمشقيّين في أواخر القرن التاسع الهجريّ/ الخامس عشر الميلاديّ، كانت لها دورة حياة أقصر بكثير؛ حيث استخدمها هذا الشاهد في صناعة تجليد الكتب والمجاميع التي أنتجها في السنوات اللاحقة[٢].

من المستحيل تحديد المدّة الزمنيّة لمرحلة الحياة الثانية لوثيقتنا في الوقت الحاليّ؛ لأنّنا لا نعرف إلّا القليل عن المرحلة الثالثة من عمرها، وهي مرحلة الحفظ في قبة الخزنة في الجامع الأمويّ بدمشق. سنطلق على المرحلة الثالثة

(١) ينظر عن الممارسة الأرشيفيّة:

El-Leithy, T., 'Living Documents, Dying Archives: Towards a Historical Anthropology of Medieval Arabic Archives', al-Qanṭara 32/2 (2011), 389-434; Hirschler, K., 'From Archive to Archival Practices. Rethinking the Preservation of Mamlūk Administrative Documents', Journal of the American Oriental Society 136/1 (2016), 1-28; Livingston, Managing Paperwork.

Hirschler, Konrad. A Monument to Medieval Syrian Book Culture the Library of Ibn Abd al-Hadi. Edinburgh: University Press, 2020.

مؤلّفات يوسف بن حسن بن عبد الهادي (٨٤٠- ٩٠٩هـ/ ١٤٣٧- ١٥٠٣م) ومساهمته في حفظ التراث الفكريّ: هيرشلر، كونراد/ سعيد الجوماني، (قيد الطبع).

(2) Hirschler, Konrad. A Monument to Medieval Syrian Book Culture.

مؤلّفات يوسف بن حسن بن عبد الهادي.

اسم (مرحلة القبّة)، لكن في الحقيقة لا نعرف الكثير عن وظيفة قبّة الخزنة إلّا أنّها تشبه من نواحٍ كثيرة مكافئتها الأكثر شهرة (جنيزا القاهرة). لكن وفي حال (جنيزا القاهرة) ليس من الواضح لماذا قرّر الكَتَبة ومستخدمو المستندات إيداع تلك الوثائق في هذا المخزن على مرّ القرون. وليس هذا هو المكان المناسب لرواية قصة قبّة الخزنة الرائعة ويكفي أن نقول: إن أريانا دوتون رامباخ كتبت أفضل نظرةٍ عامّة عنها حتى الآن[١]. كما قدَّم كوردولا بانت، وآرند راتمان حساب الاكتشاف الأكاديميّ لمخزون هذه القبّة[٢]، وسيطرح المجلّد القادم أوّل نظرةٍ عامّة متعدّدة التخصُّصات عنها[٣].

تتوزّع مقتنيات القبّة اليوم على العديد من المتاحف والمكتبات حول العالم، وقد تمَّ حصرها في ثلاث مجموعات رئيسة؛ أهمّ هذه المجموعات هي المحفوظة في متحف الآثار التركيَّة والإسلاميَّة في إستانبول. التي تضمّ أكثر من (٢٠٠٠٠٠) مادّة (تتراوح بين قصاصاتٍ صغيرة، ورقوق من كتاب واحد). ولا تزال المجموعة الثانية موجودة في المتحف الوطنيّ بدمشق، وعلى الرغم من أنّ عددها غير معروف فإنّ تقديره هو رقم مكوّن من أربعةِ حقول، أمّا المجموعة الثالثة فهي قطع فرديّة في المتاحف والمكتبات في جميع أنحاء العالم، ولكن غالباً ما تكون موادّ القبّة مفتقرة إلى ما يُثبت مصدرها، وعليه لا توجد فرصة لوضع تخمينات مستنيرة بشأن عددها الدقيق.

تندرج ملامح المادّة المعروفة (ويجب التنبيه على أنّه لا يُعرف سوى جزء ضئيل منها) في ثلاث فئات؛ أولاً: النصوص السرديّة العربيّة الإسلاميّة ممثلةً بأوراق متناثرة من أصول مصاحف قرآنيّة - والتي عمل عليها فرانسوا ديروش – باعتبارها أهمّ العناصر

(1) D'Ottone, A., 'Manuscripts as Mirrors of a Multilingual and Multicultural Society: The Case of the Damascus Find', in Negotiating Co-Existence: Communities, Cultures and Convivencia in Byzantine Society, a cura di B. Crostini-S. La Porta, Trier 2013, 63-88.

(2) Bandt, C./A. Rattmann, 'Die Damaskusreise Bruno Violets 1900/1901 zur Erforschung der Qubbet el-Chazne', Codices Manuscripti 76/77 (2011), 1-20.

(3) D'Ottone Rambach, A./K. Hirschler/R. Vollandt (eds), The Damascus Fragments: Towards a History of the Qubbat al-khazna Corpus of Manuscripts and Documents, Beirut 2020.

المعروفة[١]. ثانياً: الوثائق العربيّة الإسلاميّة الصادرة من دمشق بما في ذلك وثائق الحجّ، وعقود الزواج، والمستندات المتعلّقة بالممتلكات، وقد تمّ نشر العديد من هذه الوثائق من قبل دومينيك سورديل، وجانين سورديل ثومين، وجان ميشيل موتون اعتماداً على صورٍ مأخوذة بنظام التصوير القديم (الأبيض والأسود)، التُقطت في إستانبول في ستينيات القرن العشرين[٢]. أخيراً تتكون المجموعة الثالثة من نصوص غير إسلاميّة، وعدد قليل من الوثائق بلغات متنوعة بما في ذلك العبريّة، واللاتينيّة، والفرنسيّة القديمة، واليونانيّة، والأرمنيّة، والجورجيّة، والسريانيّة، والقبطيّة، والمثال الأكثر شهرة لهذه المجموعة الثالثة هو جزء الإنجيل المكتوب باليونانيّ والعربيّ ثنائيّ اللغة المعروف باسم (Violet fragment)[٣]. إنَّ الغالبية العظمى من الأوراق والرقوق المنتمية إلى الفئة الأولى موجودة في إستانبول، مع عددٍ صغير ثانويّ في دمشق وحول العالم (خاصّة الأجزاء القرآنيّة). أمّا الموادّ المنتمية إلى الفئة الثانية فتمّ تحديدها حتى الآن في إستانبول فقط، وفي المقابل لا يوجد أيّ شيءٍ من عناصر الفئة الثالثة في إستانبول، ولكن الغالبية العظمى منها موجودة في دمشق مع بعض الأجزاء في مؤسّسات منتشرة حول العالم.

الوثيقة التي تمّت مناقشتها هنا هي مستند غير رسميّ، يجلس بشكل غير مريح إلى حدٍّ ما مع فئات المواد الثلاث التي نعرفها حتى الآن؛ وقد يرجع ذلك إلى أن مجموعات متحف الآثار التركيّة والإسلاميّة في إستانبول، والمتحف الوطنيّ في دمشق، لا تزال في الغالب مخفيّةً وبعيدة عن متناول الباحثين. وبصرف النظر عن

(1) See for instance Déroche, F., 'Collections de manuscrits anciens du Coran à Istanbul', in J. Sourdel-Thomine (ed.), Études médiévales et patrimoine turc. Volume publié à l'occasion du centième anniversaire de la naissance de K. Atatürk, Paris 1983, 145-66.

(2) The most important publications include Mouton/Sourdel/Sourdel-Thomine, Propriétés rurales et urbaines; Mouton/Sourdel/Sourdel-Thomine, Mariage et séparation and Sourdel, D./J. Sourdel-Thomine, Certificats de pélerinage d'époque ayyoubide, Paris 2006.

(3) On this see Vollandt, R., 'Beyond Arabic in Greek letters: The Scribal and Translational Context of the Violet Fragment' in A. Al-Jallad, The Damascus Psalm Fragment Middle Arabic and the Legacy of Old *Ḥigāzī*, Chicago forthcoming.

موقعها داخل مجموعات القبّة، لا يزال وجود مثل هذه الوثيقة غير الرسميّة المنتمية إلى ثقافة العامّة يثير بعض الأسئلة عمّن قام بإيداعها هناك؟ ولأيّ سبب؟.

من المفيد التفكير عند التعامل مع الوثائق الرسميّة التي كانت محفوظةً في قبّة الخزنة، أنّها أتت دون استثناء من المجال الذي سيطر عليه القضاة الذين صُدِّرت عقود الزواج بحضورهم، وصُدِّقت الصفقات العقاريّة من قِبَلهم، أو من قبل الشهود. ونظراً إلى الحيّز الموضوعيّ الضيّق لهذه الوثائق، فمن المحتَمل أنّها وَجدت طريقها كمجموعاتٍ أرشيفيّة في مرحلة ما إلى القبّة. أمّا الوثائق المرتبطة بالنخب السياسيّة والعسكريّة كتلك المرتبطة بالضرائب، والتعيين في المناصب السياسيّة، أو الدينيّة، أو العسكريّة، وتوزيع الإقطاعات فلم يظهر منها في مجموعة قبّة الخزنة سوى أعداد قليلة فقط.

نتيجة لذلك يبدو أن هناك منطقاً أرشيفيّاً لِما كان يُسمح بإيداعه في القبّة أو يُرفض، ومن المرجّح أنّ وثيقتنا انتهى بها المطاف في جوف القبّة بالمصادفة البحتة، وأنّه لا يوجد منطق أرشيفيّ لمسارها هذا على الإطلاق، ومع ذلك ونظراً إلى بروز الوثائق ذات الصلة بالقضاة، فإن الفرضيّة الأكثر ترجيحاً في الوقت الحالي هي أنّ ثَبت التّاجرِ (س) قد شارك مسار دفاتر الحَمَويّ من القدس؛ إذ ضُمّت دفاتره إلى الأوراق المتعلّقة بالتّركة بعد وفاته، وربما جرى الشيء ذاته بعد وفاة التّاجر (س)؛ فقام قاضٍ بتسوية تركته ومن ثَمَّ أمر بنقل أوراقه إلى الأرشيف الخاصّ به، ومن هناك شقَّت طريقها إلى القبّة، مثلما انتهى الأمر بدفاتر الحَمَويّ في مجموعة الحرم الشريف في القدس.

لقد بقيت وثيقتنا في دمشق في قبة الخزنة زهاء سبعة قرون حتى نهاية الحرب العالميّة الأولى، فعندما انسحبت القوات العثمانيّة من المدينة حملت معها الجزء الأكبر من مخطوطات القبّة[1]، ومن المدهش حقيقةً أن يفكّرَ جيشٌ منسحبٌ في اصطحابِ مثل هذه المادّة الوثائقيّة معه.

(١) مرآة الشام: ٤٩.

وهنـاك فـي إسـتانبول تـمّ إيـداع هـذه الأوراق والرقـوق فـي متحـف الآثـار التركيّـة والإسـلاميّة، وأصبحت تُعرف باسـم (Şam Evrakları)، ثمّ تمّ تصنيف الوثيقة مع مئات الأوراق والأجـزاء والقصاصـات الأخرى تحت الرقـم (١٣٣٢٧)، وبهذا النقل دخلت الوثيقة مرحلتهـا الرابعـة والأخيـرة كوثيقـةٍ تاريخيّة محفوظـة في متحف.

ثَبْتُ حساب أبي الزهر الفاميّ

[الصفحة ١]

-١	ثَبتُ حساب أبو[١] الزهر فامي	
-٢	يوم السبت تاسع	
-٣	شهر رمضان	
-٤	عنده	خمسة دنانير صورية
-٥	عليه يوم الأحد	
-٦	عاشر رمضان	أربعة دنانير صورية
-٧	يتلوه[٢] ثمن زبيب بدفعة	
-٨	وأيضا يده[٣] يوم الأربعاء	ثمانية عشر دينارصورية
-٩	ثالث عشر رمضان	
-١٠	وله بتاريخ السبت	
-١١	سادس عشر رمضان	ثلاثمائة وثلاثة وأربعين ط
-١٢		[...] وثلاثة وأربعين ط[٤]
-١٣	عليه بتاريخ الاثنين	
-١٤	ثامن عشر رمضان	خمسة عشر دينار صورية
-١٥	عنده بتاريخ يوم السبت ثالث عشرين	دينار صوري

(١) هكذا في الأصل والصواب: أبي.

(٢) جاءت الكلمة في الأصل في السطر السادس، ولكنّنا وضعناها في السطر السابع ليتمّ المعنى.

(٣) هكذا في الأصل والصواب: بيده.

(٤) هذه العبارات مشطوب عليها في الأصل.

١٦-	وعنده بتاريخ يوم الأربعاء	عشرين دينار	
١٧-	سابع عشرين الشهر	وعنده بتاريخ الأحد ثاني عشرين شوال خمسة عشر دينار	صورية
١٨-	عنده بتاريخ يوم الخميس ثامن عشرين		ستة دنانير صورية
١٩-	الشهر		
٢٠-	عنده بتاريخ الاثنين[1] ثالث شوّال		أربعة دنانير صورية
٢١-	عنده يوم الأربعاء رابع شوّال		
٢٢-	ثمن زبيب بدفعة		دينارين
٢٣-	عنده يوم الخميس خامس شوّال		عشرين دينار
٢٤-	عنده بتاريخ يوم الاثنين تاسع شوّال		ثمانية عشر دينار صورية
٢٥-	عنده بتاريخ يوم الخميس تاسع عشر شوّال	ثلاثة دنانير	

(١) هكذا في الأصل والصواب: يوم الثلاثاء، ينظر الصفحة ٢: السطر٢١.

[الصفحة ٢]

-١	ثبت حساب أبو الزهر فامي	حوْ	
-٢	له يوم السبت تاسع		
-٣	شهر رمضان		أربع مائة خمس وثلاثين ط
-٤	وله يوم الاثنين		
-٥	حادي عشر		أربع مائة ط
-٦	وله يوم الأربعاء		
-٧	ثالث عشر رمضان		أربع مائة ستة سبعين ط
-٨	وله بتاريخ السبت سادس		
-٩	عشر رمضان		ثلثمائة وثلاثة أربعين ط
-١٠	وله بتاريخ الاثنين ثامن عشر رمضا[ن]		ثلثمائة ثلاثة وأربعين ط
-١١	وله بتاريخ يوم الخميس حادي عشرين		
-١٢	شهر رمضان		خمس مائة ط
-١٣	وله بتاريخ يوم السبت ثالث عشرين		ثلثمائة وثمانية خمسين ط
-١٤	وله بتاريخ يوم الاثنين		
-١٥	خامس[1] الشهر		مائتي خمسة سبعين ط
-١٦	وله بتاريخ يوم الأربعاء		
-١٧	سابع وعشرين		أربع مائة سبعة خمسين ط
-١٨	له بتاريخ يوم الخميس ثامن عشرين		
-١٩	الشهر		ثلثمائة خمسة خمسين ط
-٢٠	له بتاريخ السبت سلخ الشهر		ثلثمائة عشرة ط
-٢١	له بتاريخ يوم الثلاثاء ثالث شوّال		ألف وخمس مائة [ط]
-٢٢	له بتاريخ يوم الخميس خامس شوّال		أربع مائة ستين ط
-٢٣	له بتاريخ السبت سابع شوّال		ثلثمائة خمسة ستين ط
-٢٤	له بتاريخ يوم الإثنين تاسع شوّال		ثلثمائة ستة وثلاثين ط
-٢٥	له بتاريخ يوم الجمعة ثالث عشر	بر	ثلثمائة أربعة ستين ط
-٢٦	شوّال		

(١) هكذا في الأصل والصواب: خامس وعشرين.

[الصفحة ٣]

١-	له بتاريخ يوم الأحد	
٢-	خامس عشرة شوّال	خمس مائة ط
٣-	له بتاريخ يوم الأربعاء	
٤-	ثامن عشر شوّال	أربع مائة ثمانية عشرين ط
٥-	وله بتاريخ يوم الخميس	
٦-	تاسع عشر شوّال	مائتي أربعة ستين ط
٧-	وله بتاريخ يوم الأحد ثاني عشرين شوّال	أربع مائة وأربعة وأربعين
٨-	وله بتاريخ يوم الخميس سادس عشرين	
٩-	شوّال	مائتي ستة وأربعين ط
١٠-	وله بتاريخ السبت ثامن عشرين شوّال	ستمائة وستة ط
١١-	حُوسِبَ أبو الزهر إلى يوم السبت ثامن	عشرين شوّال
	----------	----------
١٢-	فكان له عشر ألف وثمان مائة وأربعة	وثلاثين[1] ط
١٣-	عنها صرف ثمانية وثمانين بدينار	
١٤-	مائة واثنين عشرين دينار	
	----------	----------

حُوسِبَ أبو الزهر إلى يوم السبت ثامن عشرين شوّال

(١) هكذا في الأصل والصواب: عشرة آلاف وثمان مائة وأربعة وثلاثين.

١٥-	عنده إلى يوم السبت ثامن وعشرين شوّال			وعنده يوم الأحد ثاني عشرين عشرة دنانير صورية
١٦-	مائة أحد وثلاثين دينار صورية[1]			
	----------			----------
١٦/أ-	وعنده يوم			
١٦/ب-	الخميس ثالث ذي الحجّة	ومعه بتاريخ الثلاثاء ثامن ذي الحجة ثمانية دنانير، وعند[2] أيضاً يوم الأحد ثامن ذو القعدة		خمسة عشر دينار
١٧-	بقي عنده إلى يوم السبت ثامن وعشرين شوّال			
١٧/أ-	أبو الزهر الفاميّ			
١٨-	تسعة دنانير صورية		وعنده يوم الثلاثاء سابع عشر دينارين	
١٨/أ-				
١٨/ب-	عشرة دنانير صورية			

(١) هكذا في الأصل والصواب: مائة وواحد وثلاثين ديناراً.

(٢) هكذا في الأصل والصواب: عنده.

[الصفحة ٤]

١-	له بتاريخ	عليها حوس		
٢-	يوم الأربعاء			
٣-	رابع ذو القعدة		ثلاثمائة وتسعين ط	
٤-	وله بتاريخ يوم الأحد			
٥-	ثامن ذو القعدة		خمس مائة خمسة وسبعين ط	
٦-	وله يوم الخميس ثاني عشر			
٧-	ذو القعدة		أربع مائة ط	
٨-	وله بتاريخ يوم الثلاثاء سابع عشر		خمس مائة ط	
٩-	وله بتاريخ يوم الأربعاء		مائتي وسبعين ط	
١٠-	يتلوه ثمن باقلاء			
١١-	وله يوم الأحد ثاني			
١٢-	عشرين ذو القعدة		ستة مائة وخمسة خمسين ط	
١٣-	وله يوم الجمعة سادس عشرين[١]		مائتي ستة أربعين ط	
١٤-	وله يوم الاثنين ثامن عشرين[٢]			
١٥-	ذو القعدة		ثلاثمائة سبعة وأربعين ط	
١٦-	وله بتاريخ الخميس ثالث ذي الحجّة		سبعمائة وسبعة عشر ط	
١٧-	وله بتاريخ الثلاثاء ثامن ذي الحجّة		سبعمائة وثلاثين ط	
١٨-	وله بتاريخ يوم الأحد			
١٩-	ثالث عشر ذي الحجّة		ألف وأربعمائة وثلاثة عشر ط	
	----------		----------	

(١) هكذا في الأصل والصواب: السابع والعشرين.

(٢) هكذا في الأصل والصواب: الثلاثون من ذي القعدة.

٢٠-	حُوسِب أبو الزهر إلى يوم الأحد	حوسب.
٢١-	فكان له ستة ألف ومائتي وثلاثة وأربعين[1] ط	
٢٢-	عنها ستة وستين دينار صورية	
٢٣-	وخمسة وثلاثين ط	
٢٤-	عنده سبعة وخمسين دينار	
٢٥-	بقي له قبضها تسعة دنانير صورية وخمسة وثلاثين ط	

(١) هكذا في الأصل والصواب: ستة آلاف ومائتين وثلاثة وأربعين. وهذا الرقم (٦٢٤٣) رطلًا هو ناتج صحيح.

ملحق بالبحث

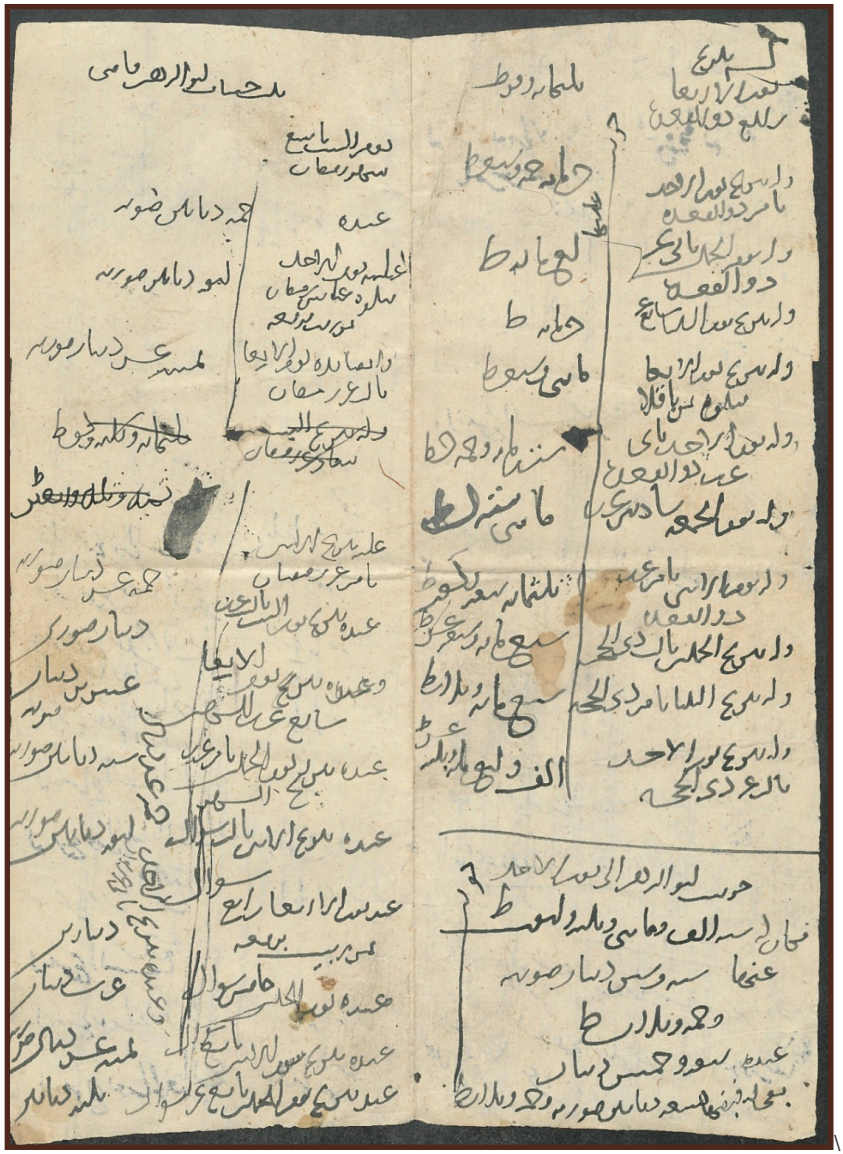

اللوحة ١ ثَبت أبي الزهر، الوجه: الصفحتان الأولى (يسار) والرابعة (يمين).
© Türk ve İslâm Eserleri Müzesi، **إستانبول**، Şam Evrakları 13327.

اللوحة ٢ ثبت أبي الزهر، الظهر: الصفحتان الثانية (يمين) والثالثة (يسار).

© Türk ve İslâm Eserleri Müzesi، **إستانبول**، Şam Evrakları 13327.

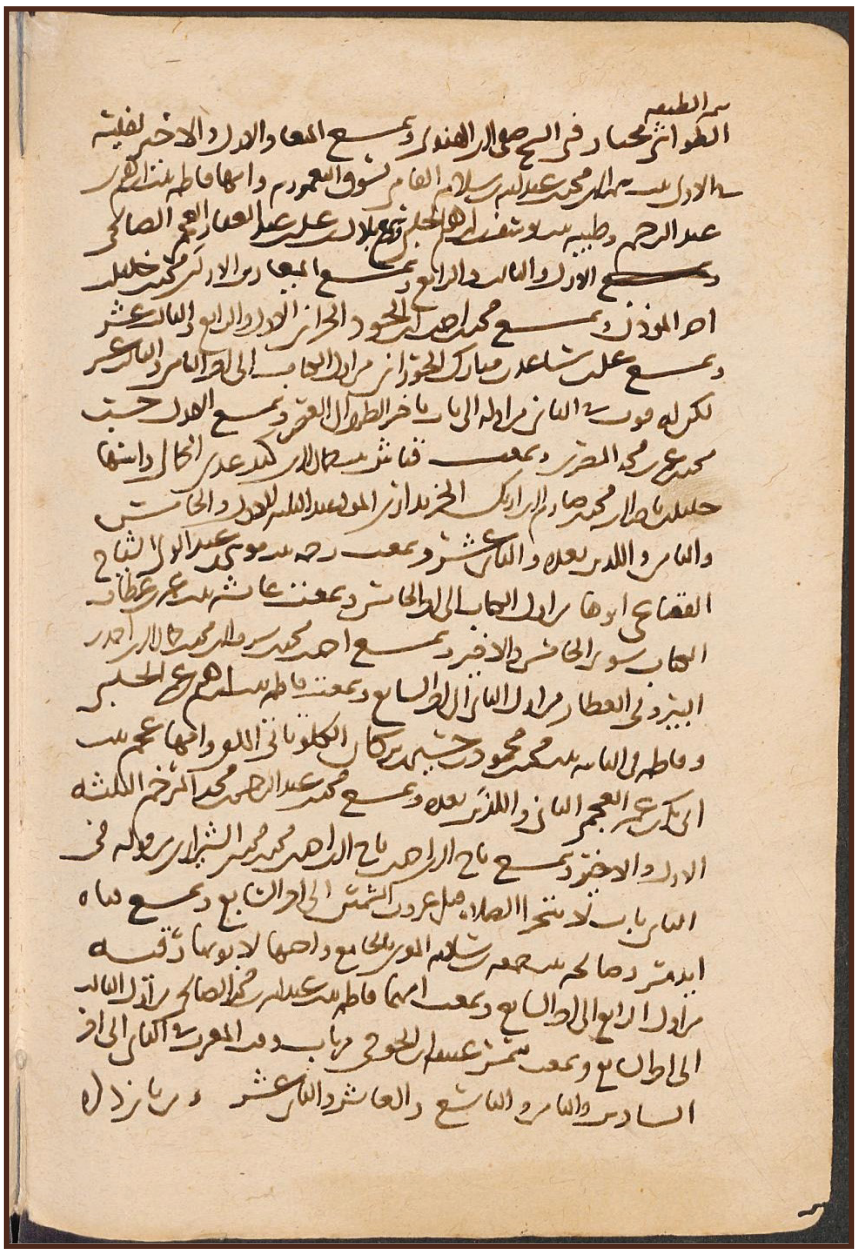

اللوحة٣، إجازة القراءة (٧١٤هـ/١٣١٥م) تُشير إلى سوق اليغموريّة في دمشق (السطران ١ و٢). مخطوطة مكتبة الدولة في برلين، Wetzstein II 1326, fol. 257b..

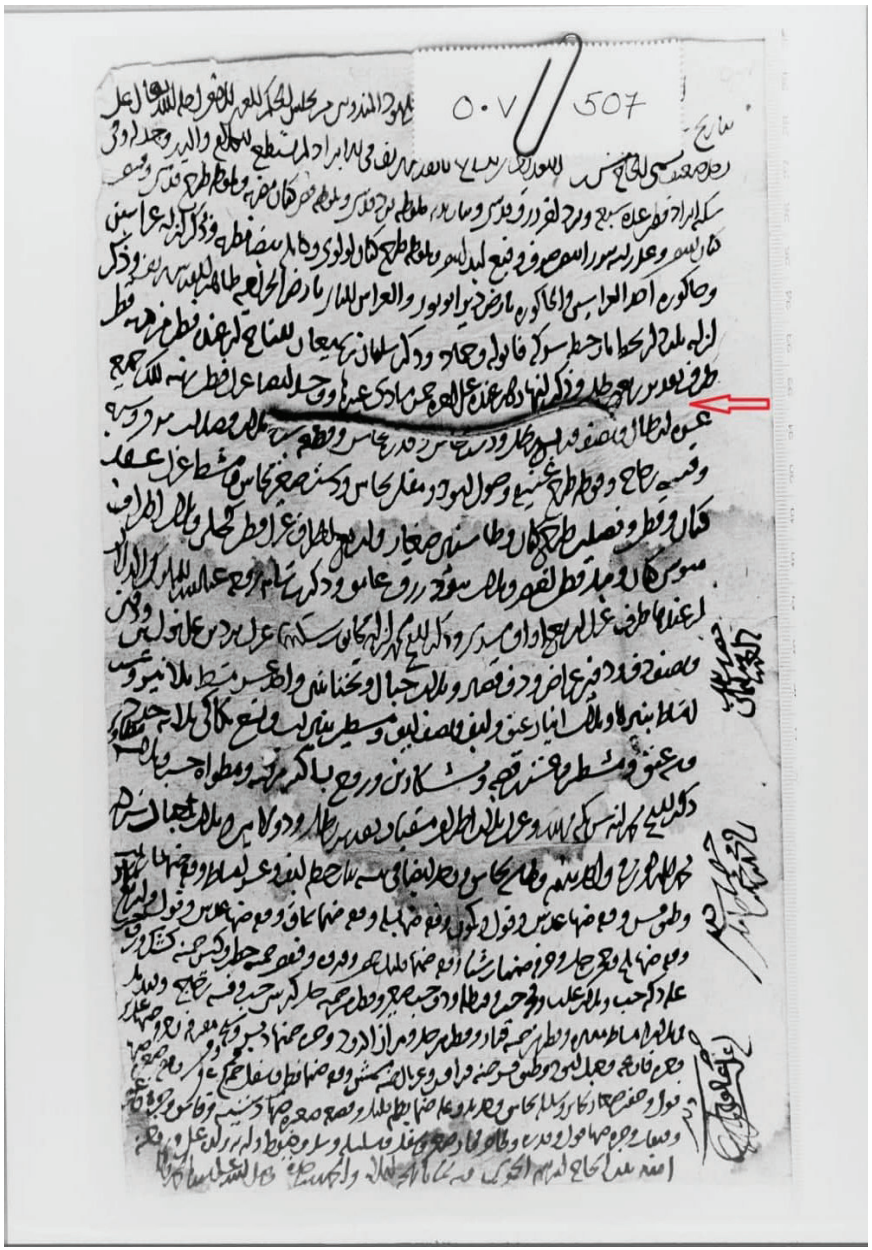

اللوحة ٤. وفيها يظهر خيط الحزمة، والثقب. (الوثيقة ٥٠٧. المتحف الإسلاميّ، القدس) .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطة:

١. صحيح البخاريّ: محمد بن إسماعيل البخاريّ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين، Wetzstein II (١٣٢٦).

ثانياً: العربية:

٢. أسواق دمشق القديمة ومشيداتها التاريخية: قتيبة الشهابيّ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠م.

٣. البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، تحقيق: عليّ شيري، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ١٩٨٧م.

٤. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ١٩٩٤م.

٥. ثَبت أبي الزهر فامي: © Türk ve İslâm Eserleri Müzesi، إستانبول، Şam Evrakları 13327

٦. اللباب في تهذيب الأنساب: عزّ الدين الجزريّ (ابن الأثير)، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٢م.

٧. مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها: عبد العزيز العظمة، تحقيق: نجدة فتحي صفوة، دار رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٧م.

٨. معجم دمشق التاريخيّ للأماكن والأحياء والمشيّدات ومواقعها وتاريخها كما وردت في نصوص المؤرّخين: قتيبة الشهابيّ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٩م.

٩. معجم السماعات الدمشقيّة المنتخبة من سنة (٥٥٠ إلى سنة ٧٥٠هـ/ ١١٥٥) إلى (١٣٤٩م): شتيفان ليدر وياسين السواس، ومأمون الصاغرجيّ، دمشق، ١٩٩٦م.

١٠. المقتفى على كتاب الروضتين: علم الدين القاسم بن محمّد البرزاليّ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصريّة، بيروت،، ٢٠٠٦م.

١١. يوسف بن حسن بن عبد الهادي (٨٤٠- ٩٠٩هـ/ ١٤٣٧- ١٥٠٣م) ومساهمته في حفظ الإنتاج الفكريّ: كونراد هيرشلر وسعيد والجوماني، دار بريل، ٢٠٢١م (يصدر قريباً).

ثالثاً: المجلّات والدوريات:

١٢. نزهة الرفاق عن شرح حال الأسواق: يوسف بن حسن ابن عبد الهادي، تحقيق: حبيب الزيات، مجلة المشرق، العدد (٣٧) سنة (١٩٣٩م).

رابعاً: الأجنبية:

13. Aljoumani, Said/ Hirschler, Konrad. 'Trading Fruits and Legumes on a Medieval Damascene Market: The Documentary and Archival Life Cycle of an Account Book from the Qubbat al-khazna (Şam Evrakları 13327)', in: Hatice Aynur/Didar Bayır/Fatma Şen/Tuncay Zorlu (eds), Festschrift in Honour of Ekmeleddin İhsanoğlu for his 75th Birthday, Istanbul 2021, 51-88.

14. ʿAnkawi, A., The pilgrimage to Mecca in Mamluk times, in R.B. Serjeant/B.L. Bidwell (eds), Arabian Studies I, London 1974.

15. Arabic Papyrology Database, P.Cair.Arab. 105 (https: //www.apd.gwi.uni-muenchen.de/apd/project.jsp; accessed 23 April 2019).

16. Bandt, C./A. Rattmann, 'Die Damaskusreise Bruno Violets 1900/1901 zur Erforschung der Qubbet el-Chazne', Codices Manuscripti 76/77 (2011).

17. D'Ottone Rambach, A., 'Manuscripts as Mirrors of a Multilingual and Multicultural Society: The Case of the Damascus Find', in Negotiating Co-Existence: Communities, Cultures and Convivencia in Byzantine Society, a cura di B. Crostini-S. La Porta, Trier 2013.

18. D'Ottone Rambach, A./K. Hirschler/R. Vollandt (eds), The Damascus Fragments: Towards a History of the Qubbat al-khazna Corpus of Manuscripts and Documents, Beirut 2020.

19. Déroche, F., 'Collections de manuscrits anciens du Coran à Istanbul', in J. Sourdel-Thomine (ed.), Études médiévales et patrimoine turc. Volume publié à l'occasion du centième anniversaire de la naissance de K. Atatürk, Paris 1983.

20. El-Leithy, T., 'Living Documents, Dying Archives: Towards a Historical Anthropology of Medieval Arabic Archives', al-Qanṭara 32/2 (2011).

21. Gacek, A., Arabic Manuscripts. A Vademecum for Readers, Leiden/Boston, 2009.

22. Guo, L., Commerce, Culture, and Community in a Red Sea Port in the Thirteenth Century. The Arabic Documents from Quseir, Leiden 2004.

23. Heidemann, St., 'Economic Growth and Currency in Ayyubid Palestine', in R. Hillenbrand/S. Auld (eds), Ayyubid Jerusalem: The Holy City in Context 1187–1250, London 2009.

24. Hinz, W., Islamische Maße und Gewichte umgerechnet ins metrische System, Leiden 1970.

25. Hirschler, K., 'From Archive to Archival Practices. Rethinking the Preservation of Mamlūk Administrative Documents', Journal of the American Oriental Society 136/1 (2016).

26. Hirschler, Konrad. A Monument to Medieval Syrian Book Culture the Library of Ibn Abd al-Hadi. Edinburgh: University Press, 2020.

27. Khan, G., Arabic Legal and Administrative Documents in the Cambridge Genizah Collections, Cambridge 1993.

28. Korn, L., Ayyubidische Architektur in Ägypten und Syrien: Bautätigkeit im Kontext von Politik und Gesellschaft 564–658/1169–1260, Heidelberg, 2004.

29. Leder, St., 'Eine neue Quelle zur Stadtgeschichte von Damaskus. Zur Alltagsgeschichte der Haditwissenschaft', in H. Preißler/H. Stein (eds), Annäherung an das Fremde. XXVI. Deutscher Orientalistentag, Stuttgart 1998.

30. Little, D.P., A Catalogue of the Islamic Documents from Al-Ḥaram Aš-Šarif in Jerusalem, Beirut 1984.

31. Livingston, D., Managing Paperwork in Mamlūk Egypt (c. 1250-1517). A Documentary Approach to Archival Practices, PhD thesis (SOAS, University of London) 2019.

32. Mouton, J.-M./Sourdel, D./Sourdel-Thomine, J., Mariage et séparation à Damas au Moyen Âge: un corpus de 62 documents juridiques inédits entre 337/948 et 698/1299, Paris 2013.

33. Mouton, J.-M./Sourdel, D./Sourdel-Thomine, J., Propriétés rurales et urbaines à Damas au Moyen Âge: Un corpus de 73 documents juridiques entre 310/922 et 669/1271, Paris 2018.

34. Müller, Ch., Der Kadi und seine Zeugen: Studie der mamlukischen Ḥaram-Dokumente aus Jerusalem, Wiesbaden 2013.

35. Österreichische Nationalbibliothek A.Ch.10233.

36. Sourdel, D./J. Sourdel-Thomine, Certificats de pélerinage d'époque ayyoubide, Paris 2006.

37. Vollandt, R., 'Beyond Arabic in Greek letters: The Scribal and Translational Context of the Violet Fragment' in A. Al-Jallad, The Damascus Psalm Fragment Middle Arabic and the Legacy of Old Ḥigāzī, Chicago forthcoming.